جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

صورة الأمير يوسف بن تاشفين في الشعر الأندلسي في عصري ملوك الطوائف والمرابطين
دراسة تحليلية نقدية

إعداد

د/ فاطمة عبد العزيز عبد العزيز النجار
مدرس الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

(العدد الثامن والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. مايو)
(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

صورة الأمير يوسف بن تاشفين في الشعر الأندلسي في عصري ملوك الطوائف والمرابطين دراسة تحليلية نقدية

فاطمة عبدالعزيز عبد العزيز النجار

قسم الأدب والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة، جامعة الأزهر، مصر

البريد الإلكتروني: Fatimaalnaggar886.el@azhar.edu.eg

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن صورة الأمير يوسف بن تاشفين في الشعر الأندلسي في عصري ملوك الطوائف والمرابطين، وقد انتظمَتْ في تمهيد ومبحثين، فتحدثت في التمهيد عن حياة الأمير يوسف بن تاشفين، والصلة والعلاقة بين عصري ملوك الطوائف والمرابطين، ومفهوم الصورة وأنواعها، وبيّنت في المبحث الأول صورة الأمير يوسف في شعر المدح، وكشفت في المبحث الثاني عن صورة الأمير يوسف في شعر الرثاء.

وقد اتبعت المنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي في دراسة الأشعار وتحليلها، وخلصت الدراسة إلى أنَّ الشعراء رسموا للأمير صورًا مشرقةً في المدح؛ فهو الملك المُؤيَّد وجُندُه من الله –عزَّ وجلَّ– بالنصر والظفَر على الأعداء، والإمام العادل الذي يقوم بحق رعيته خير قيام، وهو المُنْقِذ للإسلام، والمُخلِّص لضعفاء المسلمين من الذل والهوان، والقائد الشجاع المِقْدَام في ساحات الوغى يهب لنصرة الدين، كما أنَّه تقي ورعٌ متدين، صاحب عقل راجح ورأي صائب، وقد ركَّز الشعراء على أصله العربي، فهو طيب النسب، كريم المَحْتِدِ، عريق الأصل، يمنيٌّ حِمْيَري، وفي الرثاء رسموا له صورًا طيبةً حميدةً تدور حول وصفه بالتقوى، والقيام بحق رعيته على أكمل وجهٍ، والتواضع، والجهاد لإعلاء كلمة الله عز وجل.

الكلمات المفتاحية: صورة، يوسف بن تاشفين، الطوائف، المرابطون، دراسة تحليلية، نقدية.

The Image of Prince Yusuf ibn Tashfin in Andalusian Poetry During the Eras of the Taifa Kings and the Almoravids: A Critical Analytical Study

Fatima Abdel Aziz Abdel Aziz Al-Najjar
Department of Literature and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies.for Girls, Mansoura, Al-Azhar University , Egypt
E-mail: Fatimaalnaggar886.el@azhar.edu.eg

Abstract:
This study aims to explore the portrayal of Prince Yusuf ibn Tashfin in Andalusian poetry during the eras of the Taifa kingds and the Almoravids, It is organized into an introduction and two chapters. In the introduction, I talked about the life of Prince Yusuf ibn Tashfin, and the connection and relationship between the era of the Taifa Kings and the Almoravids. In the first chapter, I showed the image of Prince Yusuf in praise poetry, and in the second chapter, revealed the image of Prince Yusuf in elegy poetry , The study adopted the historical descriptive-analytical approach in examining elegiac poetry and its analysis. The poets portrayed Prince Yusuf with noble images in praise; he is the powerful and strong king, the man of victory and triumph over enemies, the just Imam who upholds the religion of Islam, the savior who rises to defend Muslims from humiliation and disgrace, and the leader who rushes to support the oppressed in times of hardship and adversity They also described him as wise, insightful, and possessing sound judgment. The poets mentioned that he had pure lineage and noble Arab roots, generous in manners and origin. He is the righteous, God-fearing one, described in the elegies as having noble traits, a refined personality, modesty, and a face that shined with the light of God.

Keywords: Yusuf ibn Tashfin, Taifa Kingdoms, Almoravids, Analytical, Critical Study.

المقدمة

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين... **وبعدُ**

فيُعدُّ الأمير يوسف بن تاشفين بحقٍّ واحدًا من عظماء القادة المسلمين الذين جدَّدوا للأمة أمرَ دينها، فقد حكم بلاد المغرب ثم بلاد الأندلس مدةً طويلة قاربت خمسين عامًا بدءًا من سنة (٤٥٤هـ) حتى وفاته سنة (٥٠٠هـ)، وقد أهَّله لذلك ما تمتع به من صفات خُلقية، وحنكة سياسية، ومهارة عسكرية، وكانت حقبته مليئة بالمعارك الحربية المُتوَّجة بالانتصارات، ومنها معركة الزَّلاقة التى عدَّها المؤرخون من أعظم الوقائع في التاريخ الإسلامي، حيث ضَمِنت استمرارَ الوجود العربي الإسلامي في الأندلس خلال أربعة قرون أخرى، وعملت على إيقاف الاحتلال المسيحي لها، وأظهرت ضعف ملوك الأندلس الناتج عن التفرق والانقسام، وأعلت شأن الأمير يوسف في عيون مسلمي الأندلس، فأحبوه وعدُّوه المُخَلِّص لهم من حياة الظلم والهوان التي كانوا يَحْيَوْنها، وقد وقف الشعراء عند ذلك كلِّه، فنظموا في شخصه وفي إنجازاته شعرًا.

وليست الغاية من هذه الدراسة التأريخ للأمير يوسف بن تاشفين وحياته، بل المراد بيان الصورة التي رسمها له الشعراء في أشعارهم، ومن ثَمَّ جاء هذا البحث لِيُبيِّن تلك الصورة التي رسمها له الشعراء في أشعارهم في عصري ملوك الطوائف والمرابطين[١]، وليقف عند أهم الموضوعات والأفكار والمعاني التي تناولها الشعراء عند حديثهم عن هذا الأمير، وقد حددت الشعراء في عصري

(١) الرباط هو: حصن حربى يُقام فى الثغور المواجهة للعدو للذود عن ديار المُسْلِمين، ويحتوي على برج مراقبة وحصن صغير، وكلمة مرابط تطلق على الشخص الذى خرج إلى الثغور للدفاع عن المُسْلِمين ضد أعدائهم، ومنه أخذ المرابطون تسميتهم، وقد عُرفوا أولا بالملثمين، ونشأوا في المغرب، وعظُمت دولتهم في عصر الأمير يوسف بن تاشفين.

ملوك الطوائف والمرابطين؛ لأن كثيرًا من الشعراء الذين أدركوا عصر المرابطين عاشوا في ظلال ملوك الطوائف.

ومن هنا فإنَّ إشكالية البحث تُثير عددًا من التساؤلات، أهمها:

من الأمير يوسف بن تاشفين؟ وما منزلته؟ وكيف صوَّره الشعراء في أشعارهم؟ وما الموضوعات التي طرقوها عند بيان صورته؟ وما الأفكار والمعاني التي تناولوها عند الحديث عنه؟ وهل وفَّاه الشعراء حقَّه؟

ولذا جاءت دراستي هذه بعنوان: **(صورة الأمير يوسف بن تاشفين في الشعر الأندلسي في عصري ملوك الطوائف والمرابطين دراسة تحليلية نقدية)** للإجابة عن هذه التساؤلات، ومن خلال استقراء شعر الشعراء في الأمير يوسف وتصنيفه بعد القراءة المتعمقة التي تسبر أغوار النص قدر المستطاع، وجدته يدور حول المدح والرثاء، وقد بيَّنتُ الصورة التي رسمها الشعراء للأمير في مدحهم له، وفي رثائه من خلال الاستشهاد بنماذج من الشعر العمودي، وأخرى من الموشح والزجل، وقد أدرجت نماذج من هذين اللونين؛ لكونهما من الفنون الشعرية التي ظهرت في العصر الأندلسي، وأيضًا بقصد محاولة الإلمام بكل ما قيل من شعر في الرجل.

وقد واجهتني بعض الصعوبات تمثلت في: جمع النصوص الشعرية من مظانها المتنوعة، وقلة الدراسات الأدبية التي تحدثت عن الأمير ابن تاشفين، فلم أعثر إلا على دراسة أدبية واحدة تحدثت عنه بعنوان: صورة الأمير يوسف بن تاشفين في أدب الرسائل في عهدي الطوائف والمرابطين، لرائد عبد الرحيم، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، المجلد١/٢١، ٢٠٠٧م.

أما عن الدراسات التاريخية فقد أفدت من الدراستين الآتيتين:

– دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، د. سعدون عباس نصر الله، ط١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

– يوسف بن تاشفين التجربة التاريخية الرائدة، عمر أعراب، ٢٠١٩م.

هذا، وقد استفدت من بعض المراجع التي تحدثت بصورة عامة عن تاريخ الأندلس أو دولة المرابطين، ومنها:

- تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات (الأندلس)، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩م.
- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، د. إحسان عباس، ط٢، دار الشروق، عمان، الأردن ١٩٩٧م.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وبيان ذلك على النحو الآتي:

التمهيد: وجاء بعنوان: نظرة تاريخية، واشتمل على ثلاثة مطالب، **المطلب الأول:** نبذة عن الأمير يوسف بن تاشفين موحد المغرب وقائد المرابطين، **والمطلب الثاني:** الصلة والعلاقة بين ملوك الطوائف والمرابطين، **والمطلب الثالث:** الصورة مفهومها وأنواعها.

المبحث الأول: صورة الأمير يوسف بن تاشفين في شعر المدح.

المبحث الثاني: صورة الأمير يوسف بن تاشفين في شعر الرثاء.

ثمَّ ختمتُ البحثَ بخاتمة ضمَّت أهم النتائج التي خلصت إليها الدراسة .

وأما عن المنهج فقد اتبعتُ المنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي في دراسة الأشعار وتحليلها.

وفي الختام فإنَّ هذا العمل بشري يعتريه النقص، ويعتوره القصور والزلل، فما كان فيه من صواب فمن توفيق الله، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، واللهَ أسأل أن يغفر الزلل، ويتجاوز عن الخطأ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلِّ اللهم وسلِّمْ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد: نظرة تاريخية

المطلب الأول: نبذة عن الأمير يوسف بن تاشَفين موحد المغرب وقائد المرابطين

نسبه: هو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورقيت، الحِمْيَريّ من قبيلة لَمْتُونة الصّنْهاجِيّة، وأُمُّه بنتُ عم أبيه فاطمةُ بنت سِير بن يحيى بن وجاج، وقد عُرفت قبيلته بسيادتها، وبسطت سيطرتها على صنهاجة، واحتفظت بالرياسة منذ أن جعلها الإمام ابن ياسين فيها بعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجَدَّالي، فنما عزيزًا كريمًا فى قَومه(١).

وصفُه وصفاته: كان يوسف أسمر اللون نقيه، معتدل القامة، نحيف الجسم، خفيف العارضين، دقيق الصوت، أكحل العينين، أقنى الأنف، له وَفْرة تبلغ شحمة الأذن، مقرون الحاجبين، أجعد الشعر(٢).

أما عن صفاته الخُلقية فقد كان ذا حظٍّ وافر من الأخلاق والمناقب الحسنة التي أهلته للوصول إلى تلك المنزلة الرفيعة، والمكانة المرموقة في الدولة

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (٦٨١هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج٧ /١١٢، والبيان المُغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري (توفي بعد ٧١٢هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، ومحمود بشار عواد، ط١، دار الغرب الإسلامي، تونس، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ١٣،٣٨/٣، و الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف مجهول، تحقيق: سهيل زكار، وعبد القادر زمامة، ط١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ص١٣-٨٣، ودولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، تأليف:د. سعدون عباس نصر الله، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٣٥.

(٢) ينظر: وفيات الأعيان ١٢٥/٧، ودولة المرابطين، ص ٣٦.

المرابطية، وفي قلوب مسلمي الأندلس كما ذكرت كتب التاريخ والتراجم؛ فقد كان بطلاً شجاعًا، مِقدامًا نجدًا حاذقًا، جوادًا كريمًا، زاهدًا فى زينة الدنيا، مقتصدا في أموره غير متطاول ولا مبذر في صنوف الملاذ بالأطعمة وغيرها، وكان عادلاً متورعًا، متقشفًا، لباسه الصوف، وطعامه خبز الشعير، ولحوم الإبل وألبانها(١).

وأما عن نهج سياسته فقد كان حازمًا سائسًا للأمور، ضابطًا لمصالح مملكته، مُؤْثِرا لأهل العلم والدين، حيث كان يُفضل الفقهاء، ويُعظِّم العلماء ويصرفُ الأمورَ إليهم، كثير المشورة لهم، يُكرمهم ويصدُر عن رأيهم، ويَقضي على نفسه بفُتياهم، وكان يخطب لبني العباس، وتلقب أمير المسلمين(٢)، وعنه يقولُ ابنُ عذاري: "وما زال إلى أن لَقِيَ الله مُجِدًّا في الأمور، مُلقَّنًا للصواب فيها، مُستصحِبًا حال الجَدِّ، مُؤدِّيًا إلى الرعية حقَّها من الذَّبّ عنها والغلظة على عدوِّها، وإفاضةٍ للأمن والعدل فيها، يرى صُورَ الأمور على حقيقتها، وكان مُعظمًا مهيبًا لا يَخلد إلى راتبة ولا يسكُنُ إلى دَعَة" (٣).

نشأته وحياته: ولد في جنوب بلاد المغرب (موريتانيا حاليا)، واختلف في سنة مولده بين(٤٠٠هـ)، (٤١٠هـ)(٤)، ونشأ بها نشأة دينية جهادية، ربَّته

(١) ينظر: وفيات الأعيان ١١٣/٧ و١٢٠.

(٢) ينظر: الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن محمد بن الأثير(٦٣٠هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ١٣٧/٨، ووفيات الأعيان ١٢٤/٧-١٢٥.

(٣) البيان المُغرب ٣٨/٣.

(٤) من الكتب التي ترجمت له وحدَّدت سنة (٤٠٠هـ) تاريخا لمولده روض القرطاس وجذوة الاقتباس. ينظر: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، لأبي الحسن علي بن أبي زرع الفاسي (٧٤١هـ)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص١٣٦، وجذوة الاقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام بمدينة فاس، أحمد ابن القاضي المكناسي(٩٦٠-١٠٢٥هـ)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، =

الأحداث وصاغت من شخصيته قائدًا فذًّا، وبرهنت الأيامُ على أنَّه ذو مقدرة على فهم واقعه، قادر على النهوض بقومه وشعبه وجيشه نحو حياة إسلامية حضارية أفضل، تلقَّى يوسف تعاليمه الأولى فى قلب الصحراء من أفواه المُحَدِّثِين والفقهاء، ونما وترعرع وتربَّى على تعاليم الإمام الفقيه ابن ياسين(١)، ونبغ فى فنون رجال الحرب، وفى السياسة الشرعية التى تتلمذ على الفقهاء فيها(٢).

وتذكُر كتبُ التَّارِيخ(٣)أنه تزوج زينب بنتَ إسحاق النَّفزاوية بعد أن طلَّقها ابن عمه أبو بكر بن عمر حينما عزم على السفر إلى الصحراء للجهاد والدعوة والإصلاح، فقال لها: أنت امرأة جميلة بضَّة، لا طاقة لك على حرارة الصحراء، وإنِّى مطلقك؛ فإذا انقضت عدتك فانكحى ابن عمى يوسف بن تاشفين، وتزوَّجها

=

١٩٧٣م، ص٥٤٦، أما الصفدي فيقول عنه: (ومات يوم الإثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة، وعاش تسعين سنة ملك منها مدة خمسين سنة)، ومعنى هذا أن مولده سنة (٤١٠هـ)، وهو ما اعتمده صاحب الأعلام، وهذا فيما اطلعت عليه ينظر: الوافي بالوفيات، تأليف: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٧٦٤هـ)، عناية: ماهر جرَّار، النسخة الألمانية، دار النشر للكتاب العربي، برلين، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م،ج١٧٥/٢٩، والأعلام، خير الدين الزركلي، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٢٢٢/٨.

(١) عبد الله بن ياسين بن مكوك الجزولي من طرف صحراء غانة، من شيوخ المالكية، حمل على عاتقه دعوة الصنهاجيين إلى دينهم الصحيح، فقام ببناء رباط على نهر النيجر؛ ليكون مدرسة يعلمهم فيه أصول الدين ومبادئه الشرعية، فهو الزعيم الديني لدولة المرابطين، وكان من بين تلامذته يوسف بن تاشفين. ينظر: دولة المرابطين ص٢١، ويوسف بن تاشفين التجربة التاريخية الرائدة، عمر أعراب، ٢٠١٩م، ص١١.

(٢) ينظر: دولة المرابطين في المغرب والأندلس ص٣٧.

(٣) ينظر: البيان المُغرب ١٧/٣–١٨، وتاريخ ابن خلدون ٢٤٤/٦ و٦٢/٧، ودولة المرابطين في المغرب والأندلس ص٣٧.

يوسفُ بعد تمام عدَّتِها، وكانت زينب بنت إسحاق مشهورة بالجمال والرئاسة، بارعة الحسن، حازمة لبيبة، ذات عقل رصين، ورأى سديد، ومعرفة بإدارة الأمور، فكانت نِعْمَ الزوجة المعينة لزوجها، وقد أثنت كتب التاريخ على هذه المرأة، وجعلتها من خيرة نساء دولة المرابطين، وقد ولدت له المعز بالله سنة ٤٦٤هـ، والفضل سنة ٤٦٩هـ[١]، وتزوَّج الأمير يوسف من سيدة أندلسية تُدعَى (قمر)، وهى التي أنجبت الأمير عليًّا وليَّ العهد، وأمير الأَنْدَلُس والمغرب بعد والده، وتزوَّج أيضًا امرأة تسمى عائشة أنجبت له الأمير محمدًا الذى نُسب إليها فصار يدعى محمد ابن عائشة، ورُزق من الذكور أيضًا تميمًا الذى توفى غداة معركة الزلاقة[٢]، وكان واليًا على سبتةَ، وإبراهيمَ، وأمَّا بناته فاثنتان: كوتة ورقيَّة[٣].

وفاته: توفي يوم الإثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة، وملك قرابة خمسين سنة، ودُفن بقصره بحضرة مراكش[٤].

---

(١) ينظر: البيان المغرب ١٨/٣، ٢٤.

(٢) الزَّلاَّقة: بطحاء الزلاقة من إقليم بَطَلْيُوس غرب الأندلس، فيها كانت الواقعة الشهيرة للمسلمين على الطاغية أذفونش بن فردلند، وكان ذلك في الثاني عشر من رجب سنة ٤٧٩هـ، وقيل: كانت يوم الجمعة خامس عشر من رجب، وقيل: في العشر الأواخر من رمضان سنة ٤٧٩هـ. ينظر تفصيل الواقعة في: وفيات الأعيان ١١٧/٧، والروض المعطار في خبر الأقطار، تأليف: محمد عبد المنعم الحميري، تحقيق: د. إحسان عباس، ط٢، مطبعة لبنان بيروت ١٩٨٤م، ص٢٨٨-٢٩٢، والبيان المغرب ٣٢٦/٣ و٣٢٧، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقّري التلِمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨، ٣٦٠/٤- ٣٦٧.

(٣) ينظر: دولة المرابطين في المغرب والأندلس ص٣٨.

(٤) ينظر: الكامل في التاريخ ٥٣١/٨، ووفيات الأعيان ١٢٥/٧، والبيان المغرب (مستهل شهر المحرم) ٣٧/٣ ، وشذرات الذهب ٤٢٧/٥.

أما عن حياته الجهادية والسياسية: فقد تدرج يوسف بن تاشفين من قائد عسكري في الجيش المرابطي يعمل تحت إمرة ابن عمه الأمير أبي بكر إلى قائد لمقدمة جيش المرابطين في معركة الواحات سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م، ثم أصبح نائبًا عن ابن عمِّه الأمير أبي بكر على المغرب سنة ٤٥٢-٤٥٤هـ/١٠٦٠-١٠٦٢م، فقد خصَّ أبو بكر نفسه بالمجال الصحراوي، وترك الشمال لابن عمه يوسف، فأنابه عنه وأمره بمتابعة الجهاد بعد أن ترك له ثلث الجيش المرابطي.

واستطاع يوسف بمهارته الحربية وحنكته السياسية أن يبسُط سلطانه على المغرب الأوسط والجنوبي خلال مدة لا تتجاوز بضعة أشهر مما حَمَل ابن عمه على التخلي له عن الإمارة، وقد علل الأمير أبو بكر هذا التنازل لابن عمه يوسف بدِينه وشجاعته، وحزمه ونجدته وعدله، وورعه وسداد رأيه، ويُمن نقيبته، فأصبح يوسف أمير المرابطين بلا منازع.

ثم بدأت مرحلة الإمارة ٤٥٤-٥٠٠هـ/١٠٦٢-١١٠٦م واتجه فيها نحو المغرب الشمالي لانتزاعه من أيدي الزناتيين، وبحلول سنة ٤٦٧هـ استطاع بسط نفوذه على سائر المغرب الأقصى والشمالي باستثناء طنجة وسبتة، ثم استولى قائده صالح بن عمران على طنجة سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م، وفي سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م وجَّه الأمير يوسف ابنه المعز في جيش إلى سبتة لفتحها، وكتب المعز بالفتح إلى والده في ربيع الآخر ٤٧٧هـ/١٠٨٤م[(١)]، وما زال في جهاده وفتوحاته حتى ضم الأندلس تحت إمرته بمرسوم من الخليفة العباسي المستظهر، وهو الذي اختط مدينة مَرَّاكُش سنة ٤٦٥هـ[(٢)]، وهي إحدى أكبر

(١) لمزيد من التفصيل ينظر: دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين ص٣٨-٥٣، ويوسف بن تاشفين، لعمر أعراب ص١٢-٢٢.

(٢) مَرَّاكُش: مدينة عظيمة بناها بموضع كان اسمه مراكش، أي: امشِ مسرعًا، وكان مأوى للصوص، فكان المارّون فيه يقولون هذه الكلمة، فعُرف بها. وفيات الأعيان ١٢٤/٧.

حواضر العالم الإسلامي، ومن أهم المدن التاريخية للحضارة الإسلامية، لتصير عاصمةً لدولة المرابطين.

المطلب الثاني: الصلة والعلاقة بين عصري ملوك الطوائف والمرابطين

أدى ضعف الخلافة الأموية في الأندلس في عهد هشام بن الحكم المُؤيَّد بالله آخر خليفة للأمويين (٣٦٦-٣٩٩هـ) إلى ظهور الفتنة والفوضى في بلاد الأندلس، واشرأبت الأعناق إلى الانقسام، وذلك في مطلع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وكان الانقسام الفعلى، ففقدت الأندلس وحدتها السياسية، وانقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة مستقلة أطلق عليها المؤرخون اسم (دويلات الطوائف)، وقد بلغ عددها أكثر من عشرين دويلة أو إمارة، وعُرف رؤساؤها بملوك الطوائف أو أمراء الطوائف، وتعددت فئاتهم بين موالي الأموية، والعرب، والبربر، وموالي العامرية[١].

وهذا الانقسام والتفرق أعطى فرصةً للأسبان النصارى المتربصين أن يُوجهوا ضرباتهم إلى كل إمارة على حدة طمعًا في استرداد الأندلس، وخاصةً لِما كان بين ملوك الطوائف من التناحر والتباغض، بل إنَّ بعضهم استعان بعدوه على أخيه المسلم، واضطر صاغرا إلى دفع الجزية للنصارى اتقاءً لخطرهم الداهم، وهذا ما عبر عنه الأديب أبو بكر ابن القَصيرة في إحدى رسائله إذ ذكر أنَّ: " أكثر ملوك هذا الإقليم كانوا يُداخلون طوائف الروم، ويكتري كلٌّ واحد منهم عسكرًا بجملة من المال، يُخرجُه إلى بلد كاشحه، ويسلِّطُه على معانده ممَّن

(١) لمزيد إيضاح وتفصيل ينظر: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات (الأندلس)، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٣٥-٣٨، وتاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، ط٢، دار الشروق، عمان،الأردن ١٩٩٧م، ص١١-١٤، وتاريخ الأدب الأندلسي، د. محمد زكريا عناني، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ١٩٩٩م، ص٢٠-٢١.

يجاوره من البلاد، حسدا له وطمعًا في بلده أن يصير طوع يده، فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة، والرعية مهملة"[١].

وقد أُصيبت الأندلس بثلاثة أحداث عنيفة، **أولها:** استيلاء النورمانيين على بَرْبَشْتَر سنة ٤٥٦هـ[٢]، **وثانيها:** استيلاء ألفونسو السادس أو الأذفونش على طُليطلة، **وثالثها:** سقوط بَلَنْسِية سنة ٤٨٧هـ[٣]، وسنقف مع الحادث الثاني (سقوط طليطلة)[٤]– واسطة القلادة ونقطة الدائرة في الجزيرة – وكان سقوطها سنة (٤٧٨هـ) بعد حصار طويل لم تجد فيه ناصرًا ولا مُعينًا، بل إن بعضهم كان له يد في سقوطها[٥]، هنا أحسَّ ملوكُ الطوائف بالخطر المُحدق بهم وأن ما

(١) أبو بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القَصِيرة، الإشبيلي، نشأ في دولة المعتضد بن عباد ثُمَّ ألحقه الوزير ابن زيدون في جُملة الكتاب، ثم صار وزيرا في دولة المعتمد فلُقب بذي الوزارتين، وضمَّه الأمير يوسف إلى كُتابه بعد أن خلع ملوك الطوائف. ينظر ترجمته في: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لأبي الحسن عليّ بن بسَّام الشنتريني (ت:٥٤٢هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ق٢ م١/٢٣٩–٢٤٠، وقلائد العقيان ومحاسن الأعيان لأبي نصر الفتح بن محمد الشهير بابن خاقان (ت:٥٢١هـ)، تحقيق وتعليق د. حسين يوسف خريُوش، ط١، مكتبة المنار الأردن بالتعاون مع جامعة اليرموك ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، والنص في الذخيرة ق٢ م١/٢٥٤.

(٢) ينظر: الروض المعطار ص٩٠، والذخيرة ق٢ م١/٢٤٩.

(٣) سقطت بعد استيلاء المرابطين على معظم الأندلس، واستعادها يوسف سنة ٤٩٥هـ.

(٤) ينظر: الذخيرة ق٢ م١/٢٤٩، ونفح الطيب ٣٥٢/٤ و٣٥٦.

(٥) فقد عقد المعتمد بن عباد معاهدة مُخزية مع ألفونسو السادس يتعهد فيها ملك قشتالة بمعاونة المعتمد ضد جيرانه المسلمين، وفي المقابل يتعهد المعتمد بأن يؤدي الجزية له، وأن يُطلق يدَه في أعماله العسكرية ضد طُليطلة، لكن الدائرة دارت عليه وبعد سقوط طليطلة بدأ ألفونسو في زيادة الجزية، بل إنَّه كَاتَبه يُطالبه بتسليم بلاده. ينظر: نفح الطيب ٣٥٦/٤، والروض المعطار ص٢٨٨.

أصاب طليطلة سيصيبهم، وأن العدو لا عهد له ولا أمان، ولن تنفعهم معاهدات عقدوها معه، فعليهم أن يتداركوا أمرهم ويوحدوا كلمتهم، فأجمعوا على ضرورة الاستعانة بالأمير يوسف بن تاشفين ملك المغرب ليخلّصهم من بطش ألفونسو؛ وذلك لما علموه من شجاعة يوسفَ وتقواه وورعه، وقوة دولته الفتية، وكان قد ذاع صيته واشتهر أمر فتوحاته المتوالية بالمغرب، ولكن كان هناك تخوف من قِبل بعض الأمراء في فكرة الاستنجاد بيوسف؛ فقد خافوا منه على ملكهم، إلا أن المعتمد حسم الأمر بمقولته الشهيرة: **(رعي الإبل خير من رعي الخنازير)**[(١)]، وبدأ ملوك الطوائف يكاتبونه ويرسلون إليه الرسلَ مستنجدين به، فاستجاب لندائهم ولبى دعوتهم، وأعدَّ جيشًا عظيمًا عبر به البحر المتوسط إلى الأندلس، فاستقبله أمراؤها وسار بجيشه إلى إشبيلية حيث وافته جيوش الأندلس، والتقت جيوش المسلمين بجيوش ألفونسو السادس ملك قشتالة في سهل الزلاقة بالقرب من بَطَلْيَوْس، فكانت معركة الزلاقة المشهورة عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، وكان النصر حليف المسلمين، وهُزم ألفونسو السادس شر هزيمة، وفرَّ مع بقية من جنوده مُثخنا بجراحه، وقُتل معظم جنوده، ومن نجا منهم وقع أسيرا، وعاد يوسف إلى المغرب مُتوَّجا بتاج النصر والعزة والفَخار.

وكانت هذه المعركة العلاقة والرابطة بين عصري ملوك الطوائف والمرابطين، ثم كان العبور الثاني ليوسف إلى الأندلس عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م، واتجه بقواته مع القوات الأندلسية إلى حصن ليِّيط[(٢)]، لمحاصرته، وسلطوا عليه

(١) يعني أنه يُفضل أن يكون أسيرا لدى أمير المرابطين يرعى له جماله من أن يكون أسيرا لدى ملك قشتالة. ينظر: وفيات الأعيان ١١٥/٧، ونفح الطيب ٣٥٩/٤ ، والروض المعطار ص٢٨٨.

(٢) هو حصن أقامه القشتاليون بين مُرْسية ولُورَقة ليكون قاعدة للإغارة على أراضي المسلمين في هذه المنطقة، ويقع على قمة جبل شاهق ينظر: الكامل ٣١٠/٨.

آلات الحصار لكنها لم تنجح في هدمه أو إحداث ثغرة ينفذ منها المسلمون؛ نظرًا لمناعته واستماتة المدافعين، وتوافد تعزيزات قشتالية من طليطلة، ودام الحصار نحو أربعة أشهر دون جدوى، ففَكَّ يوسف الحصار، وعاد إلى بلاده بعد أن ترك بعض قواته تحت إمرة خير قواده سِير بن أبي بكر اللمتوني.

وكان عبوره الثالث إلى الأندلس في أوائل سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م، حيث عبر بجيش ضخم لضم الأندلس تحت إمرته؛ وذلك لما رآه من ملوكها من فرقة وتنابذ وجنوح إلى الترف والبذخ، في الوقت الذي يهملون فيه شئون رعيتهم، ويتقاعسون عن حماية دولتهم من خطر النصارى، بل يوالونهم ويُؤلِّبونهم عليه، وكان قد أخذ الفتوى من كبار الفقهاء[١]في المشرق والمغرب والأندلس بوجوب خلع ملوك الطوائف، وانتزاع الأمر من أيديهم،؛ إذ كان لا يحب القيام بعملٍ إلا إذا كان متفقًا مع أحكام الشرع الحنيف.

فاتجه بقواته إلى طليطلة واجتاح في طريقه أراضي قشتالة، ولم يتقدم أحد من ملوك الطوائف لمعاونته أو السير معه، وكان يرغب في استرداد طليطلة، لكنه لم ينجح لمناعة أسوارها العالية، فرجع بجيشه إلى إشبيلية وفي عزمه أن يستخلصها هي وغيرها من إمارات ملوك الطوائف[٢]، فقسَّم قواته في أنحاء الأندلس، وبدأ بالاستيلاء على غرناطة ودخلها في العاشر من رجب سنة ٤٨٣هـ/سبتمبر ١٠٩٠م، فكانت غرناطة أول ما ملكه المرابطون من بلاد الأندلس[٣]، ثم بعث قائده سير بن أبي بكر اللمتوني على رأس جيش كبير إلى

(١) أمثال: أبوحامد الغزالي، وأبو بكر الطرطوشي من فقهاء المشرق، وابن القلاعي قاضي غرناطة، وقاضي مالقة من فقهاء الأندلس ينظر: تاريخ ابن خلدون ٦/٢٤٩.

(٢) إذ كان قد تيقن من عودة ملوك الطوائف إلى عقد اتفاقات سرية مع ملك قشتالة، يتعهدون فيها بالامتناع من معاونة المرابطين والدخول في طاعة ألفونسو ملك قشتالة وحمايته .

(٣) ينظر: الكامل ٨/٣١٠ .

إشبيلية فتمكن من الاستيلاء على كثير من مدنها، ودخل المرابطون قرطبة في الثالث من صفر سنة ٤٨٤هـ/٢٦ مارس ١٠٩١م[١]، ثم تتابع سقوط مدن الأندلس في أيدي المرابطين ليبدأ عهد جديد في الأندلس بعد توحيدها تحت راية واحدة، وحكم المرابطون المغرب والأندلس العُدْوَتين معًا في الفترة (٤٨٤-٥٤٠هـ)، وظل يوسف في الحكم، ومواصلة الجهاد حتى وفاته سنة ٥٠٠هـ، ثم خلفه أولاده.

المطلب الثالث : الصورة مفهومها وأنواعها

الصورة الفنية ركيزة أساسية من ركائز العمل الأدبي، فهي تمثل جوهر الشعر، والروح التي تقوم عليها القصيدة ، فالقصيدة ما هي إلا صورة شعرية مركبة من مجموعة من الصور الشعرية الأخرى، وسأقف عند بيان الصورة بإيجاز.

الصورة لغةً: يقول ابن فارس: "الصاد والواو والراء كلمات كثيرة متباينة الأصول، وليس هذا الباب بباب قياس ولا اشتقاق، ..... وصورة كل مخلوق، والجمع صُور، وهي هيئة خِلقته، والله تعالى البارئ المُصوِّر"[٢]، ومنه قوله تعالى:﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾[٣]، وقوله تعالى:﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[٤]، وجاء في اللسان: الصورة: الشكل، والصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته، وعلى معنى صفته، يُقال صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة

(١) السابق ٣٣٨/٨ .

(٢) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(ت:٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ١٣٩٩/١٩٧٩م، ج٣/٣٢٠، (صور).

(٣) سورة الانفطار، الآيتان ٧، ٨

(٤) سورة غافر، من الآية ٦٤.

الأمر كذا وكذا أي صفته[١]، وتستعمل بمعنى النوع والصفة، وقد تُطلق على تركيب المعاني التي ليست محسوسة ؛ فإنَّ للمعاني ترتيبا وتركيبا وتناسبا، ويُسمى ذلك صورة، فيُقال: صورة المسألة كذا وكذا[٢]، ومهما يكن شأن أصولها واشتقاقها، فالمتفق عليه أن لفظة الصورة: اسم مصدر من فعل رباعي، ورد مصدره قياسًا بصيغة تصوير، وفعله يفيد التأثير في شيء يتقبل التأثير... والصاد والعين الجوفاء والراء تحمل لنا جرثومة الفعل الذي يعتري شيئا من الأشياء فيُجسده في شكل آخر، ويُمثِّله في هيئة أخرى[٣] .

أما في الاصطلاح: فكانت الصورة وما تزال محل اهتمام النقاد والباحثين بوصفها من المقومات الفنية في الشعر، فقد نالت الصورة على اختلاف مسماها – بيانية أو أدبية أو فنية أو شعرية – حظا وافرا من الدراسات النقدية قديما بدءًا من الجاحظ حين رأى أن: "الشعر صناعة، وضَرب من النسج، وجنس من التصوير" [٤]، وابن قُتيبة، ومرورا بقدامة بن جعفر، ثم الإمام عبد القاهر الجرجاني من خلال نظرية النظم، وغيرهم، والمجال لايتسع لبسط الحديث فيها، كما تعددت الدراسات الحديثة [٥] حولها أيضًا على المستويين النظري والتطبيقي

(١) ينظر: اللسان (صور) .

(٢) ينظر: الكُلِّيَّات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكَفوي (ت:١٠٩٤هـ)، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م، ص٥٥٩.

(٣) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق ، د. كامل حسن البصير، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص١٨، ١٩.

(٤) الحيوان ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون ، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٥م، ج١٣٢/٣.

(٥) منها: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، د. كامل حسن البصير، والصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر عصفور، والصورة الأدبية، د. مصطفى =

بعد اتصال العرب بالغرب في القرن العشرين؛ ولذلك تعددت تعريفاتها لتعدد الرؤى واختلاف المشارب، ولا يتسع المقام لذكرها، لذا سأكتفي ببعض التعريفات عند النقاد العرب حتى يتضح المفهوم للقارئ.

فالصورة عند الأستاذ أحمد الشايب، هي"الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معا إلى قرائه أو سامعيه" (١)، ويعرفها الدكتور علي البطل فيقول: "تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة ، يقف العالم المحسوس في مقدمتها، فأغلب الصور مستمدة من الحواس الى جانب ما لايمكن إغفاله من الصورة النفسية والعقلية، وإن كانت لا تأتي بكثرة الصور الحسية"(٢) ، واعتمد الدكتور عز الدين إسماعيل في تعريف الصورة على الشعور والوجدان، فيقول: " الصورة دائمًا غير واقعية، وإن كانت منتزعة من الواقع؛ لأن الصورة الفنية تركيبة وجدانية تنتمي في جوهرها إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع"(٣)، ويُعرف الدكتور عبد القادر القط الصورة بشكل أوسع وأشمل فيقول: "هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة، مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة

=

ناصف، والصورة الأدبية تاريخ ونقد، د. علي صبح، وغيرها.

(١) أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، ط١٠، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٢٤٢.

(٢) الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، د.علي البطل، ط٢، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٣٠.

(٣) الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين إسماعيل، ط٣، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٢٧.

والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد، والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفني"[١].

ولم تعد الصورة مقصورة على الأشكال البلاغية البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، وبعض ألوان البديع، بل قد تخلو الصورة – بالمعنى الحديث– من المجاز أصلا، فتكون عبارات حقيقية الاستعمال، ومع ذلك فهي تشكل صورة ذات خيال خصب[٢].

وتكمن أهمية الصورة الأدبية في كونها لُب العمل الأدبي، وبها يمتاز شاعر عن آخر، وهي "الوسيلة الجيدة الدقيقة في إظهار التجارب الشعورية بما تحوي من أفكار وخواطر، ومشاعر وأحاسيس، وبدونها لا نعرف شيئًا بدقة عن تجارب الغير، كما لا يستطيع الغير أن يعرف عن تجاربنا شيئًا" [٣].

أنواع الصورة: كما اختلف النقاد في وضع مصطلح للصورة، اختلفوا أيضًا في أنواعها إلى تقسيمات عدة، فالصورة حسب قالبها الفني الذي صيغت فيه نوعان: بيانية، وحقيقية أو ذهنية عقلية وهي التي يظهر فيها الفكر أكثر من الخيال، وحسب حجمها تتنوع إلى: صورة مفردة، وصورة مركبة أو كلية، وصورة ممتدة، وتنقسم حسب ارتباطها بالحواس إلى: صورة بصرية، وسمعية، وشمية، وذوقية، ولمسية، ويُضاف إليها الصورة الحركية والملونة[٤]، وقد تأتي مفردة، وقد تتداخل الأنواع.

---

(١) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، د.عبد القادر القط، نشر مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٣٩١.

(٢) الصورة في الشعر العربي، د.علي البطل، ص٢٥.

(٣) الصورة الأدبية تاريخ ونقد، د.علي علي صبح، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ١٩٩١م، ص١٠٩.

(٤) ينظر: الصورة في الشعر العربي، د.علي البطل، ص٢٨.

وبناء على ما سبق، فالصورة كل ما يُساعد الشاعر على نقل تجربته الشعورية إلى المتلقي سواء أكان شكلًا بلاغيًا بيانيًا أو بديعيًا، أو تشكيلًا مُستمدًا من عمل الحواس، أو عملًا ذهنيا، أولفظًا، وهي نتاج لتفاعل الخيال الشعري، وتتآزر كل الأدوات الفنية بما فيها الموسيقى الشعرية في تكوين الصورة.

المبحث الأول

صورة الأمير يوسف بن تاشفين في شعر المدح

المدح أحد فنون الشعر الرئيسة، يقول ابن قدامة: "وللشعراء فنونٌ من الشعر كثيرة تجمعها في الأصل أصناف أربعة، وهي: المديح، والهجاء، والحكمة، واللهو، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون، فيكون من المديح: المراثي، والافتخار، والشكر، واللطف في المسألة وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه..."[(١)]، والمدح نقيض الهجاء، وهو حُسن الثناء، و"تعدادٌ لجميل المزايا، ووصفٌ للشمائل الكريمة، وإظهارٌ للتقدير العظيم الذي يُكِنُّه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا" [(٢)]، وقد عرف الشاعر العربي هذا الفن منذ جاهليته، وعبَّر في شعره عما أعجبه من صفات بعض الناس وأعمالهم، وللمدح بواعثُ كثيرة، فالشاعر يمدح "إشادةً بعظيم، أو إعجابًا وإكبارًا لعمل جليل، أو اعترافًا بصنع جميل أو رغبةً في معروف، أو حبًّا في العطايا والمِنح" [(٣)] وقد اجتمعت هذه البواعث في شخص الأمير يوسف وفِعاله، فهو رجل النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (٤٤٨-٥٠٠هـ) الذي قاد جيوشًا وبنى دولةً، وفتح بُلدانًا وأنقذ أمةً، كل ذلك في سبيل رسالة الإسلام ودعوته، فكيف رآه الشعراء في أشعارهم؟

عند الإمعان في شعر المدح الذي نظمه شعراء الأندلس في يوسف بن تاشفين نجده ورد في صور عدة:

---

(١) نقد النثر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق د. طه حسين، عبد الحميد العبادي، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٩٤١م، ص٨٩-٩٠.

(٢) فن المديح وتطوره في الشعر العربي، أحمد أبو حاقة، ط١، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت ١٩٦٢م، ص٥

(٣) في تاريخ الأدب الجاهلي، د. علي الجندي، ط١، نشر مكتبة دار التراث ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص٣٨٢.

- صورة الإمام العادل والملك المُؤَيَّد من الله عز وجل:

يطالعنا في بيان هذه الصورة قصيدةٌ لأبي الحسن بن محمد بن الجَدّ[1]، والشاعر قبل أن يشرع في مدح الأمير يوسف يقف عند حال ملوك الطوائف مُتحسِّرًا، فيقول[2]: [البسيط]

فـي كـل يـومٍ غَريـبٌ فيـه مُغْتَبَـرُ ... نلقـــاهُ أو يتلقَّانـــا بـــه خَبَـــرُ

أرى الملـــوكَ أَصـــابتْهُم بأنـــدلسٍ ... دوائـــرُ السُّـــوءِ لا تُبْقِـــي ولا تَـــذَرُ

قـد كنـتُ أَنْظُرهـا والشـمسُ طالعـةٌ ... لـو صـحَّ للقـومِ فـي أمثالهـا النَّظَـرُ

نـامُوا وأسرى لهـم تحت الدُّجَى قَدَرٌ ... هـوى بـأنجُمِهم خَسْـفًا ومـا شَـعَرُوا[3]

وكيـف يَشْـعُرُ مَـنْ فـي كفِّـهِ قَـدَحٌ ... تحـدو بـه مُـذْهلاتُ النَّـاي والـوَتَرُ؟![4]

صُـمَّتْ مسـامعُهُ عـن غيـرِ نَغْمَتِـهِ ... فمـــا تَمُـــرُّ بـــه الآيـــاتُ والسُّـــوَرُ

تَلْقـــاهُ كالعِجْـــلِ معبـــودًا بمَجْلِسِـــهِ ... لـــه خُـــوارٌ ولكـــن حَشْـــوُهُ خَـــورُ

وحولَـــهُ كـــلُّ مُغْتَـــرٍّ ومـــا عَلِمُـــوا ... أنَّ الـــذي زَخْرَفَـــتْ دنيـــاهُمُ غَـــرَرُ

---

(١) أبو الحسن بن محمد بن الجد، من بيت بني الجد، وهو بيت جليل كانوا صدورَ رتب، وبحورَ أدب، استكتبه ذو الوزارتين أبو بكر بن عمار أيام حربه بمُرسِية، وله معه أخبار مذكورة، ورسائل مشهورة . ينظر في ترجمته: المُغرب ١/٣٤٠، وابن بسام في القسم الثاني من الذخيرة ٢/٥٥٦ ويكنيه بأبي الحسين **(يوسف بن محمد بن الجد)**، وورد بكنية أبي الحسن في مواضع أخرى منها.

(٢) الأبيات في الذخيرة ق٢ م١/٢٥٦، وتاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، د. إحسان عباس، ص١٢٠.

(٣) هوى بأنجمهم خسفًا وما شعروا: ذهب ضوؤهم وزال سلطانهم.

(٤) تحدو: تسوقه، من حَدَا الإبلَ: ساقَهَا أمامه وغنَّى لها ليحُثَّها على السير.

فالملوك أصابتهم دوائر السوء التي تُشبه النار لا تُبقِي ولا تذر، متمثلة في هجوم النصارى عليهم مرة بعد الأخرى، وسقوط مدن الأندلس تباعًا، ويبدو تأثر الشاعر بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾[١]، ويرسم الشاعر صورةً لما حلَّ بهم ناقدا من خلالها أوضاعهم المُزْرية، فانغماسهم في اللهو والترف وإهمالهم واجباتهم، وتخاذلهم أمام العدو، وخضوع بعضهم له كان سببا مباشرا فيما أصابهم، فالشاعر يُحَمّلهم أسباب الكارثة، ولتخاذل هؤلاء الملوك وتنصلهم من المسئولية فقد **(ناموا وأسرى لهم تحت الدُّجى قدرٌ)**، وكيف يغمض لهم جَفْنٌ ويهنأون بنوم ورعاياهم المسلمون أسرى في يد العدو، فالشاعر لا يريد مجرد الإخبار فقط، بل يوضح تخاذلهم وتقاعسهم عن الدور المنوط بهم ورد عدوان المعتدي، فهم في حالة تكالب على الدنيا وملذاتها التي أنستهم أنفسهم **(وكيف يشعر من في كفَّه قدحٌ)**، ولحالتهم هذه فهم لا يتعظون ولا يعتبرون، صُمَّت مسامعهم عن غير ما هم فيه، ويصور الشاعرُ المَلِكَ منهم في مجلسه بالعِجل ذي الجلبة والصياح، لكن يداخله الضعفُ والوَهَن، ورغم ذلك تؤازره البِطانة الفاسدة والحاشية المضللة، وقد غرتهم الدنيا بزخرفها، وفي الأبيات تأثر بقول الله عز وجل: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [٣].

---

(١) سورة المدثر، الآيات ٢٦–٢٨.

(٢) سورة طه من الآية ٨٨.

(٣) سورة آل عمران من الآية ١٨٥.

ثم ينتقل ابن الجد إلى مدح يوسف بن تاشفين ، وكأنِّي به ينتقل من الحديث عن الضعف إلى القوة، ومن الهزيمة إلى النصر، فيقول: [البسيط]

فقُل لِمَنْ نـام أصبحـتَ، انْتبه، فلقـد مضى لك الليلُ بحْتًا وانقضى السَّحَرُ

وانظـرْ إلـى الصـبحِ سـيفًا فـي يَـدَيْ مَلِـكٍ فـي الله مـن جُنْـدِهِ التأييـدُ والظَّفَـرُ

يرعَـى الرَّعَايَـا بطَـرْفٍ سـاهرٍ يَقِـظٍ كَمـا رَعَاهـا بِطَـرْفٍ سـاهرٍ عُمَـرُ

يصور الشاعر الصبحَ سيفًا في يد يوسفَ تنجلي به الظلمات السابقة التي حَلَّت بسبب ملوك الطوائف في الأندلس، ويراه مُؤيَّدًا من الله –عز وجل– يتلقى نصره وتأييده منه؛ لأنه مخلص النية في الجهاد، ويشبهه الشاعر في قيامه بشؤون رعيته بسيدنا عمرَ بن الخطاب –رضي الله عنه– الفاروق المشهور بعدله وحزمه وزهده ووَرَعِه، ونرى جمال التعبير في قوله: **(يرعى الرعايا بطَرْف ساهر يقظ)** فيوسف يتفقد أحوال رعيته بطَرْفٍ ساهر على أمورهم، ويَقِظ متنبه لكل ما هم بحاجة إليه، فيسهر على راحتهم وذلك؛ لأنَّه يسير على خُطَا الفاروق وسَنَنه وخصاله رضي الله عنه، وتلك صورة الإمام العادل الرفيق برعيته، وقد وُفق الشاعر فيها، وساعده على ذلك تكرار قوله: **(بطَرْفٍ ساهر)**، وقوله: **(يرعى، الرعايا، رعاها)** ليؤكد حسن قيامه بأمر رعيته، والتكرار ظاهرة أسلوبية يلجأ إليها الأديب لتقوية معانيه والتأكيد عليها، وهو في حقيقته إلحاح على جهة مهمة في العبارة يُعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها؛ إذ يسلط الضوء على نقطة حسَّاسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها[1].

(١) ينظر: قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧م، ص٢٤٢.

ونلمح براعةُ الشاعر في حسن التخلص[١] من قوله: **(فقل لِمَنْ نام أصبحتَ، انتبه...)** إلى قوله: **(وانظر إلى الصبح سيفًا في يديْ مَلِكٍ)** فالشاعر يطلب من مخاطَبه أن يقول لملوك الطوائف – الذين نُعِّموا في الليل فناموا ملء عيونهم– عن نُصرة الإسلام والمسلمين: انتبهوا فقد مضى الليل صِرفًا خالصًا لكم في اللهو والملذات، وانقضى السَّحَرُ، وبادركم الصبح بقُدوم المَلِكِ يوسفَ بن تاشفين المُؤيَّد وجندُه من الله بالنصر والظفَر، وحسنُ التخلص يدل على حذق الشاعر، وقوة تصرفه وبراعته.

وقد اعتمد الشعراء الأندلسيون على وسائل عدة للتخلص من المقدمة والدخول إلى المديح، وتمثل ذلك في استخدام أدوات ربط مثل: كأن المخففة أو الثقيلة، والكاف، والواو، والفاء، وأو، وأساليب الشرط والعقد، والاستفهام غير الحقيقي؛ لإيهام المتلقي باتصال المعنى داخل السياقات المختلفة، وانسيابه انسيابًا عفويا[٢].

والأبيات في مدح يوسفَ تتضمن هجاءً وتعريضًا بملوك الطوائف الذين تركوا بلادهم نهبًا ورعاياهم أسرى في أيدي النصارى، ورجلٌ هذه صفته فهو مؤيد من الله لنصرة دينه، وعاطفة الشاعر تتميز بالقوة وصدق الشعور.

---

(١) حسن التخلص يراد به: الطريقة الفنية التي يتبعها الشاعر في الانتقال من مقدمة القصيدة إلى المديح وغيره، انتقالاً لطيفا دقيقاً على وجه سهل يختلسه اختلاساً، دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني؛ لشدة الممازجة والالتئام بينهما. ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجَّة الحموي، شرح عصام شعيتو، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان،٢٠٠٤م، ٣٢٩/١.

(٢) ينظر: قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية (عصر ملوك الطوائف)، لأشرف محمود نجا، ط١، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠٠٣م، ص١٧.

وهذا المعنى يستحضر في أذهاننا ما نظمه لسانُ الدين بن الخطيب في أرجوزته المسماة (رَقْم الحُلَل في نَظْم الدُّول) في ذكر دولة المرابطين من لَمْتُونة أهل اللِّثام وفضلهم، حيث يقول(١): [من الرجز]

وأَطْلَعَتْ بمغربٍ لَمْتُونَهْ ... دولَتُهُم عزيزةٌ ميمونَهْ

تجمعُ دُنيا وعفافًا وكرمْ ... لم يُدْرَ قَدرُ فضلِها حتى انصرَمْ

فأَذْعَنَتْ لحربِها الطوائفُ ... وظَهَرتْ من قومِها خَلائفُ

منهُمْ أبو بكرٍ حليفُ الدينِ ... ويُوسُفٌ وهْوَ ابنُ تاشَفِينِ

حتّى إذا أفْضَى إلى الفَسادِ ... أمْرُ مُلُوكِ هذه البلادِ

وأَلِفُوا الراحةَ والبطَالَهْ ... آلتْ بهم للشرِّ تلك الحالَهْ

وضُرِبَتْ عليهمُ الأموالُ ... وعَظُمتْ لديهِمُ الأهوالُ

شَمَّرَ فيهم حِسبةً وانتُدِبا ... أسماهُمُ ذاتًا وأسْنَى نَسَبَا

أميرُ حِمْصٍ وسواها المُعْتَمِدْ ... مَلْكٌ إذا حدَّثْتَ عنهُ قُلْ وزِدْ

فَعَبرَ البحرَ إلى المُلَثَّمَهْ ... لينصُرَ الدينَ وتَغْلُو الكَلِمَهْ

وإذا ولَّينا وجهنا شَطْر الزجل(٢)نجد إمامَ الزجالين بالأندلس ابنَ قزمانَ(١)يمدح يوسفَ بنَ تاشفين بالكفاءة، فهو جدير بأن يُدعى أميرَ المسلمين،

---

(١) رَقْم الحُلَلِ في نَظْمِ الدُّوَل لأبي عبد الله لسان الدين بن الخطيب القرطبي (ت:٧٧٦هـ)، المطبعة العمومية، تونس ١٢١٦هـ، ص٥٠ و٥١٥.

(٢) الزجل: يعني اللعب والجلبة ورفع الصوت، وخُصَّ به التطريب، وهو من فنون الشعر المستحدثة في الأندلس، والتي ظهرت بعد الموشحات في وقت متأخر، ويرجح ابن خلدون ذلك بقوله: " ولمَّا شاع فنُّ التوشيح في أهلِ الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وتصريع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعرابًا، واستحدثوا فنا سمَّوْه الزجل، والتزموا النظم =

فقد دافع عن الدين، ورفع شأن الخلافة وخليفة المسلمين بعد أن ظنَّ النصارى أن المسلمين في وهَن مُقيم لن تقوم لهم معه قائمة، ويدعو له وللمعاصرين في زمنه أن يباركهم الله، ويؤيدهم بنصره المُبين، فالله نعم المولى ونعم النصير، يقول(٢):

مِثْلُ ابن تاشَفِينْ يُقال له أميرْ
والخلافةْ من بَعْدُ عادت تِصِيرْ(٣)
باركَ اللهُ في أهلِ ذا الأيَّامْ
تِجِي أعوامْ إذا مَضَتْ أعوامْ
وجَعَلهمْ سلاطِنَ الإسلامْ

=

فيه على مناحيهم لهذا العهد، فجاؤوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجالٌ بحَسَب لغتهم المُستعجَمة، وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس، لكن لم يظهر حلاها، ولا انسكبت معانيها واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه، وكان لعهد الملثمين، وهو إمام الزجالين على الإطلاق ". تاريخ ابن خلدون ج١/٨٢٥، ولسان العرب (زجل)، **وزجل ابن قزمان** كُتب باللهجة العامية التي يصعب على الدارسين فهمها باستثناء أهل المغرب العربي.

(١) ابن قزمان: هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان القرطبي، حيث نشأ وترعرع فيها، وعُرفت أسرته بمكانتها العلمية العالية، ولُقب باب قزمان الصغير تمييزا له عن عمه محمد بن عبد الملك كاتب المتوكل صاحب بَطَلْيوَس، ويعدُّ إمام الزجالين بالأندلس (ت:٥٥٥هـ). ينظر: نفح الطيب ٤/٢٤، ومقدمة ديوانه ص١-٥.

(٢) ديوان ابن قزمان القرطبي إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، تحقيق وتصدير: فيديريكو كورينتي، تقديم د. محمود علي مكي، المجلس الأعلى للثقافة، المكتبة العربية، القاهرة ١٤١٥هـ /١٩٩٥م، ص١٣٢.

(٣) تسير، وفيها وجه.

ونَصَرْهُمْ كما هُوْ نِعْمَ النَّصِيرْ

وقد تأثر ابن قزمان بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾(١)، وقوله عز وجل:﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾(٢)، ولأنَّ الموقف من مواقف الجِدَّ الخالص بدأ ابن قزمان مدحه ليوسف مباشرة دون اللجوء إلى مقدمة غزلية أو خمرية أو طللية(٣).

– صورة المُنقذ للإسلام والمُخَلِّص لضعفاء المسلمين من الذل والهوان:

ويعبر عنها الشاعر أبو طالب عبد الجبار المعروف بالمتنبي(٤)حيث يقول: [الرجز]

وإذْ أراد اللهُ نصـــــرَ الـــــدينِ استصـــرخَ النـــاسُ ابـــنَ تاشـــفينِ

فجـاءهم كالصـبْحِ فـي إثْـرِ غَسَـقْ مُســتدرِكًا لِمَــا تَبَقَّــى مِــنْ رَمَــقْ

لما أراد الله نصر الدين في بلاد الأندلس استنجد الناسُ ابنَ تاشفين، وكأن الله – عز وجل – أعدَّهُ لهذا الأمر، وقد وثَّقت كتب الأدب والتاريخ ذلك فذكرتْ

---

(١) سورة الأنفال من الآية ٤٠.

(٢) سورة الحج من الآية ٧٨.

(٣) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين د. إحسان عباس، ص٢١٧.

(٤) أبو طالب عبد الجبار المعروف بالمتنبي من أهل جزيرة شُقر بين شاطبة وبلنسية. ينظر ترجمته في: الذخيرة ق١ج٢/٩١٦–، والمغرب ٢/٣٧١، والأبيات من أرجوزته في التاريخ التي تدل على رسوخ قدمه في العلم والمعرفة، وردت في الذخيرة ق١ج٢/٩٤٤، وخريدة القصر وجريدة العصر، للعماد الأصفهاني الكاتب، قسم شعراء المغرب والأندلس، تحقيق: آذرتاش آذرنوش، نقحه وزاد عليه: محمد المرزوقي، محمد العروسي المطوى، والجيلاني بن الحاج يحيى، ط٢، الدار التونيسة للنشر ١٩٨٦م، ٢/٢١٤–٢١٥.

أنَّ يوسفَ بن تاشَفِين كان: "لا تزال تَفِد عليه وفودُ ثُغور الأندلس مستعطفين مُجهِشين بالبكاء ناشدين الله والإسلام، مُستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، فيسمع إليهم، ويُصغي لقولهم، وتَرِقُّ نفسُه لهم"(١)، وقد استعان الشاعر هنا بنمط الصورة البصرية ليوضح صورة الأمير يوسف، ومدى حاجة المستضعفين إليه، فصوره بالصبح بعد الظلام الدامس يُبدد ظُلمتَه ويُزيل عتَمَتَه، فهو لم يتوانَ لحظةً حين استصرخه الناسُ واستنهضوه للدفاع عنهم، بل كان مثل نور الصبح يبدد الظُّلمة، ولحق بهم في الرمق الأخير، وقد امتزج اللون في الصورة، وإن لم يُصرح به فالصبح يدل على الإشراق والنقاء والأمل والحياة، والغسق أكثر أجزاء الليل ظلامًا، والأسود رمز التشاؤم والموت والدمار، وقد وُفِّق الشاعر في لفظة (رمق)، وهي بقية الحياة في الجسد، واللحظة الأخيرة قبل الوفاة، وتلك لمحة لغوية يقصد منها الشاعر أن يوسف كان سببًا في نجاتهم وعودة الحياة إليهم من جديد، ولماذا ابن تاشفين دون غيره؟ لأنه في نظرهم المنقذ، والمُخلِّص لهم مما هم فيه من ظلم وهوان، فقد تحرك نتيجة طلب أهلي وشعبي، وليس لمصالح سياسية دنيوية، ولعل الشاعر استحضر في ذهنه قول أبي العتاهية في مدح الرشيد(٢): [من الطويل]

إذا نُكِبَ الإسلامُ يومًا بنكْبةٍ فهارونُ من بين البريَّة ناصرُهْ

فهو يرى ممدوحه سيفا مصلتا على الأعداء، وحاميا للإسلام وناصرًا للدين.

(١) الروض المعطار ص٢٨٩، ونفح الطيب ٤/٣٦٠.

(٢) ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٢١٣.

وفي المعنى نفسه يقول لسان الدين بن الخطيب في أرجوزته[١]:

واستصــرخَ النــاسَ إلــى الجهــادِ فــأهْطعُوا مــن حاضــرٍ وبــادِي[٢]

ونصــرَ الــدينَ ابــنُ تاشَــفينِ بمَــن لديــهِ مــن حُمــاةِ الــدِّينِ

وبَهَــرَتْ آثــارُهُ الْمَشْــكُورهْ وأوقــعَ الزَّلاقــةَ المشــهورهْ

يا لكَ من يومٍ على الكُفر عصيْبْ فــاز لــه الإسـلامُ بالسـهمِ المُصـيبْ

وابن تاشفين نصرَ الإسلام، وشدَّ وثاقه وأحكمه بعد أن انحلت عُراه، وصارت الأندلس نهبًا في عهد ملوك الطوائف، يقول ابنُ قزمان[٣]:

ما فِي عِلْمِي وما سَمعْتُهْ نُقُولْ

ندري أنَّك نصرتَ دينَ الرسول

ورَبَطْتَهْ وكان بعدْ محلولْ

حتى لَسْ كان بقى لُ غيرِ يَسِيرْ[٤]

ويقول في المعنى نفسه في موضع آخر[٥]:

ثُمَّ من بعد ذا نُقُول لكْ خَبَرْ

فتحَ الله بتاشفين ونصرْ

وحمى دين رسول خير البشرْ

---

(١) رَقْم الحُلَلِ في نَظْمِ الدُّوَل، لسان الدين بن الخطيب القرطبي (ت:٧٧٦هـ)، ص٥٠-٥١.

(٢) أهطع الرجل: انطلق إلى مَنْ دعاه بسرعة، قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ القمر: ٨ .

(٣) ديوان ابن قزمان القرطبي إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، ص١٣٣.

(٤) لس: أي ليس بحذف الياء، ولُ: أي له بحذف الهاء، جاءت كتابتها في الأزجال على هذه الصورة بحذف بعض الحروف في الكلمة .

(٥) ديوان ابن قزمان القرطبي إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، ص٣٢٣.

وانطفا فيهْ من العَدُو ما اتَّقَدْ

ويدمج ابن قزمان بين مدح يوسف بنجدة المظلومين وإجابة المستغيثين الضعفاء –وهي من الصفات التي درج عليها الشعراء في وصف ممدوحيهم– ومَدْحِه بالبشاشة وسَعة الصدر، والفطنة وصدق الحدس والتخمين؛ إذ يُمَيِّز بفِطْنته وفِراسته بين الحق والباطل، ولديه القدرة على الفهم والاستيعاب، كما أنَّ كلامه حلو الحديث قوي المعنى، فيقول(١):

صاحبَ العِدوهْ صاحبَ الأندلسْ
لا يُجَبَّر ولا هُو وجهه عبوس
تستغيثْ به وتجذبَ البُرْنُس
وفَّرَ الواسِطهْ ودَعْ السَّفِيرْ
ثُمَّ فيهْ من فِطْنَ وصِدْقِ ظُنُونْ
أن يقول لك يكون كذا ويكون
وكلامُه رَطب بحال القُطُون(٢)
ومعاني مثلَ الحديد الذَّكير(٣)

ونلحظ مناداته إياه بقوله: **(صاحب العدوه)**، و**(صاحب الأندلس)** كأن الأندلس صارت ملكًا له وحده، وهذا ما تحقق فيما بعدُ، حيث ضمَّها إليه، وأعاد للأندلس وجهها المشرق من جديد بانتصاره في موقعة الزلاقة المشهورة، وقد كان من بين ألقاب يوسف: سلطان العُدْوتين، أي: أمير الضفتين: الضفة أو العُدْوة المغربية، ثم الضفة أو العُدْوة الأندلسية، وهذا أمر لم يتحقق لمَلِك مغربي ولا

(١) السابق، ص١٣٢–١٣٣.

(٢) القُطُون: الإقامة.

(٣) حديد ذكير: من معدن جيِّد.

لملك أندلسي من قبل، وهذا يدل على حجم القوة التي أسسها المرابطون بقيادة ابن تاشفين في بلاد المغرب والأندلس(١)، ونلمح السلاسة والعذوبة والصور الرائعة في الزجل.

- صورة القائد الشجاع المِقْدام:

حين أراد أبو طالب أن يصور شجاعة يوسف وإقدامه في ساحة المعركة، اتخذ نمط الصورة البصرية الحركية، فصوره بالعُقاب، وهو من الطيور الجارحة، معروف بشدة انطلاقه وسرعة انقضاضه على الفريسة، وهذا شأن يوسف في حَمْله على الأعداء، وتلك صورة تراثية من مخزون الشاعر الثقافي، فيقول مادحا إياه(٢): [من الرجز]

وافَــى أبــو يعقــوبَ كالعُقــابِ فجَــرَّدَ الســيفَ مــن القِــرابِ

وواصــلَ السَّــيرَ إلــى الزَّلاقَــهْ وســاقَهُ ليومِهــا مــا ســاقَهْ

للهِ دَرُّ مثلهــا مِــن وقْعَــهْ قامَــتْ بنصْــرِ الــدينِ يــومَ الجُمْعَــهْ

وثُــلَّ للشــركِ هنــاكَ عَرْشُــهْ لــم يُغــنِ عنْــهُ يومــهُ إذْفُونْشُــهْ

فوجــبَ الْخَلْــعُ لــذي الجماعَــهْ وصــرَّحُوا ليوســفٍ بالطَّاعَــهْ

فاتَّصــلَ الأمــرُ علــى النظــامِ وامتــدَّ ظِــلُّ اللهِ للإســلامِ

وانصــرفَتْ علــى العَــدوِّ الكَــرَّهْ ورَجَــعَ الجَمْــعُ كــأَوَّلِ مَــرَّهْ

فتلــكَ خيــلُ الله فــي العَــدُوِّ تَعِيــثُ فــي الــرَّوَاحِ والغُــدُوِّ

(١) ينظر: يوسف بن تاشفين التجربة التاريخية الرائدة (دراسة تاريخية)، ص٣٧.

(٢) الأبيات من أرجوزته في التاريخ، في الذخيرة ق١ج٢/٩٤٤، وخريدة القصر ٢/٢١٤-٢١٥.

وتتضمن الأبيات أيضًا الإشادةَ بعزم ابن تاشفين الذي لا يُقهر، وسرعةِ تلبيته نداء الجهاد في الأندلس، فها هو قد جَرَّد سيفَه من غِمده لِيذب عن دين الله وأعراض المسلمين التي انتُهكت من قِبَلِ الروم، فكان النصرُ حليفَه في موقعة الزلاقة المشهورة التي دارت في يوم الجمعة من سنة ٤٧٩هـ، وأعادت للمسلمين عزتهم وكرامتهم، وألقت الهزيمة النكراء بالأذفونش وجيشه، وثُلَّ عرشُه وسلطانُه، وما زال يوسفُ في جهاده ضد الصليبين حتى استأصل شأفتهم من بلاد الأندلس، وبسط نفوذَه عليها، وكانت الرومُ تَرهبه لِنَفاذ أمره وسرعة تملكه بلاد المغرب، مع ما ظهر من أبطال المُلثمين في المعارك من ضربات السيوف التي تقدُّ الفارس، والطعنات التي تنظم الكُلَى، كما ساهم لثامهم الذي لا يتخلون عنه في زيادة عددهم في عين العدو الذي لا يعرف الشاب من الشيخ إضافة إلى إثارته الغموض، كل ذلك كان سببًا في إدخال الرعب في قلوب الأعداء، وطبيعة الحديث عن المعركة يغلب عليها الأسلوب القصصي.

ويُفهم من الأبيات الأربعة الأخيرة أنَّ الشاعر قال هذه الأرجوزة بعد أن بسط الأمير يوسفُ نفوذه على الأندلس، ووحَّد كلمتها بعد جوازه إليها في أوائل سنة ٤٨٣هـ حيث عبر بجيش ضخم لضم الأندلس تحت إمرته؛ وذلك لما رآه من ملوكها من فرقة وتنابذ وجنوح إلى الترف والبذخ، وميل إلى الدعة والراحة والعيش الناعم في الوقت الذي يهملون فيه شؤون رعيتهم، ويتقاعسون عن حماية دولتهم من خطر النصارى، ويؤيد ذلك قوله:

فوَجَبَ الخَلْعُ لذي الجماعَهْ وصرَّحوا ليوسفٍ بالطَّاعَهْ

ويشير البيت:

فاتَّصل الأمرُ على النظامِ وامتَدَّ ظِلُّ اللهِ للإسلامِ

إلى أن يوسف أصبح المالك الحقيقي لبلاد الأندلس، وعمل على نشر العدل ورفع الظلم وتطهير البلاد من فساد السابقين ملوك الطوائف، وينعته

الشاعر بقوله: **(ظِلُّ الله)**؛ لأنَّ السلطانَ ظلُّ الله في الأرض[1]، يُقيم فيها العدل والحق، ويدعو إلى التكاتف والوحدة، وينبذ التفرق والانقسام، وهذا ما أقرَّه يوسفُ في البلاد، فهو البطل المنقذ الذي قاد البلاد وأعاد وَحْدتها بعد تمزقها إلى دويلات، ورجع الجَمْعُ كأوَّل مرَّة، وقوله: **(خيل الله)** إضافة الخيل إلى **(الله)** يوحي بأنها مؤيدة من الله في قتالها، فهي تسير بأمره في الرواح والغدو، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2]، وقريب من معنى البيت قولُ المتنبي في مدح سيف الدولة[3]: [من الطويل]

فأنت حُسَامُ المُلْكِ، واللهُ ضاربٌ وأنت لواءُ الدينِ، واللهُ عاقِدُ

فالأمير في عين الشاعر هو المثل الأعلى والنموذج الفريد الذي ينبغي أن يسير على نهجه ويترسمَ خُطاه من أراد المجد والسؤدد، وهما عند الممدوح الجهادُ ونُصرة الدين.

---

(١) من حديث: **(السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه الضعيف، وبه ينصر المظلوم، ومن أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة)**، والحديث بمجموع طرقه ضعيف، أخرجه ابن النجار عن أبي هريرة في ذيل تاريخ بغداد، لابن النجار البغدادي(ت٦٤٣هـ)، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٧٢/١٧، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي(٤٥٨هـ)، تحقيق: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، طاعة أولى الأمر، فصل في فضل الإمام العادل، (٤٧٥/٩- حديث ٦٩٨٤).

(٢) سورة الأنفال من الآية ١٧.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق د. عبد الوهاب عزام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، جامعة القاهرة، ص٣١٤.

وفي الموشح[١] يمدح الوزير أبو بكر الصيرفي الأمير يوسف بن تاشفين بالشجاعة في ساحة الحرب، لكنها ليست أيَّ حرب، بل حرب زبون شديدة متدافعة، ومثل هذه الحرب تعدُّ روضة لمثله ممَّن اعتاد خوض المعارك الشديدة، فيقول[٢]:

إنّما الحرب الزَّبُون[٣] روضةُ الأُسدِ الحُماة
حيثُ للقَنا غصونٌ أثمرتْ بالباترات

(١) الموشح من الفعل وشَّح بمعنى: لبس الوشاح، وقد استعيرت هذه التسمية من الوِشاح الذي تلْبَسه المرأة بين عاتقها وكشحها لما فيه من رونق وزخرف وجمال، فالموشح إذن سُمي بذلك لأن أقفاله وأبياته وخرجته كالوشاح للموشحة، بخلاف الشعر التقليدي الذي يأتي على طراز واحد، وقد عرَّفه ابن سناء الملك فقال: "الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص، وهو يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويُقال له التام، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع، فالتام ما ابتديء فيه بالأقفال، والأقرع ما ابتديء فيه بالأبيات" دار الطِّراز في عمل الموشحات، القاضي السعيد لأبي القاسم هبة الله بن جعفر ابن سناء الملك (ت:٦٠٨هـ)، تحقيق: د. جودت الركابي، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ص٢٥.

(٢) جيش التوشيح، لسان الدين بن الخطيب (ت:٧٧٦هـ)، تحقيق هلال ناجي، مطبعة المنار، تونس، ص١٢٤–١٢٥، **والصيرفي:** هو يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري، وكنيته: أبو بكر ويُعرف بابن الصيرفي من أهل غرناطة ولد بها سنة (٤٦٧هـ)، وتوفي في حدود سنة (٥٧٠هـ)، عمَّر طويلا فجاوز المائة بثلاث سنوات، كان مؤرخا كاتبا مُجيدا وشاعر مكثرا، وقد أثنى عليه ابن خلدون وأَطلق عليه (شاعر لمتونة وأهل الأندلس). ينظر في ترجمته: جيش التوشيح ص١٢٠، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط٢، دار الفكر، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ٣٤٣/٢ .

(٣) الزَّبْن: الدَّفع، والحرب الزَّبُون: الصعبة المتدافعة الشديدة كالناقة التي تدفع وتركل، والحربُ تَزْبِن الناسَ إذا صدمتهم. اللسان (زبن).

والأمير تاشفين في ظلالٍ خَافِقات

من رماحٍ سَمْهَرِيَّة تنظم الشكل وتنثُر بسيوفٍ مشرفِيَّة كلَّ هاماتٍ ومِغْفَر[1]

يصف الشاعر شجاعة الممدوح من خلال تصوير الحرب في صورة مُخيفة فهي حرب شديدة صعبة متدافعة تزُج الناس، لكنها في حق صاحبه وجُنده ممن اعتادوا خوض المعارك روضةٌ غنَّاء ينعمون في ظلالها، ويصور الممدوح وجنوده بالأُسْد في قوتهم وشراستهم وعدم خوفهم وإقدامهم، ويزيد دورهم أهميةً حين ينعتهم بـ**(الحُماة)** فهم حُماة الدين والمسؤولون عن أمن الناس وأمانهم، ويستكمل الشاعر بناء صورته فيجعل القنا أشجارًا لها غصونٌ مُثقلة برؤوس القتلى، والأمير في ساحة الحرب تُظلله الرماح السَّمْهَرية والسيوف المشرفية التي تنال الأعداء، فتُصيبُ رؤوسهم وأجسادهم، وقد أجاد الشاعر حين نعت الرماح بالسمهرية، والسيوفَ بالمشرفية؛ وذلك لِيُدلل على جودتها وحِدَّتها، فهي من أجودها وأصلبها.

وينتقل إلى وصف جماله ويشبهه حين يتلثم بالهلال، وبالبدر حين يُسفر عن وجهه، والممدوح ذو عِرق عربي أصيل ورثه عن مَلِكِ حِمْيَر، وقد عمَّ عدلُه الرعية، واستطاع بفضل جهاده المتواصل أن يضم الأندلس تحت حكمه بعد أن كانت تحت حكم الروم.

بأبي بدر التمام لا يعفيه الجمال

طالعٌ تحت الغَمام من لِثامه هِلال

الحياةُ والحِمام في يَمِينه سِجال

ذو خِلال يُوسفية وُرِثت عن مَلِك حِمْيَر عدلت على الرعية وحظت بتاج قيصر

(١) المِغْفَر: غطاء للرأس يلبَسه المحارب عند اشتداد البأس.

والشاعر في معرض بيان صورة الأمير يوسف يستلهم التاريخ (**مَلِكِ حِمْيَر، تاج قيصر**)، فهو أميرٌ سليلُ ملوك حِمير، وَرِث مُلكه عن ملوكها، وتغلب على الروم حتى دانت له الرؤوس.

ويصف ابنُ قزمان حال يوسف في ساحة المعركة واستخدامه السيوف المشرفية البتارة والرماح الخطية النافذة مُعملا إياها في أجساد الأعداء، فيمدحه بالقوة والشجاعة والإقدام، وجسارة القلب قائلاً[١]:

ورَأيْتُهْ بالرَّايَ واللَّمْطِي[٢]
يجري من مشْرَفِي إلى خَطِّي
أشُّ يُطْلَبْ من الطعَنْ يَعْطِي
ليس يِقِيلْ شفرَتهْ ولا يستدِيرْ

فالممدوح رمز للقوة والبطولة والانتصار.

ويقول [٣]:

رجَّع الله من جاهد الكفار
والكواكبْ عَرَضْ لهم بالنهار
بعسكرا جرَّارْ وَرَا جَرَّار

---

(١) ديوان ابن قزمان القرطبي إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، ص ١٣٤.

(٢) ورايته: تعني رأيتَهُ، بالراي: الرايات، واللَّمْطِي: درقة متخدة من جلد اللمط، وهو حيوان أفريقي من جنس الظباء إلا أنه أعظم خلقا أبيض اللون يُتخذ من جلده الدَّرَق اللمطية درع حربي مغربي موري أمازيغي رافق الجيوش المغربية في غزو الأندلس وإيبيريا، ولا يوجد مثلها في الدنيا على وقتهم، وقيل: نسبتها إلى لمطة وهي بُليدة عند السوس الأقصى مما جاور سجلماسة. ينظر: وفيات الأعيان ١١٥/٧، ودولة المرابطين في المغرب والأندلس ص١٥.

(٣) ديوان ابن قزمان القرطبي، ص١٣٣.

وسيوفًا تَقْطَعْ ورُوسًا تِطِيرْ

وقد كان الأمير يوسف بالمرصاد لقتل النصارى، يتلقفهم بسيفه هنا وهناك، حتى باتوا تحت سيفه مثل الجراد، وفي تشبيههم بالجراد دلالةٌ على كثرة القتلى من الأعداء الذين نال منهم الأمير، فلا يستطيع المرء إحصاءهم لكثرتهم، وأحيانا يضربهم بالنبال التي تنهال عليهم كالأمطار، وبالصخر الذي يشبه البَرَد، وفي ذلك إشارة إلى كثرة العُدة والعتاد والأسلحة التي بحوزة جيش الأمير يوسف، وكثرة جنوده، يقول ابن قزمان(١):

كان لقتل النصارى بالمِرْصَادْ
وقعُوا تحتَ سيفُ مثلَ الجرادْ
مرُّوا أزواجْ ومروا يدَّ أفرادْ
لا تعُدُّه فإنَّ لَسْ يَنْعَدْ
إنَّمَا هُو مَا طَلَّ هذا الفتى
واوْتَعَدُوا أين وكيف ومتى
جَا إلَيْهُمْ بنَبْلٍ مِثْلَ الشتا
وعليهُم من الصخَرْ كالبَرَدْ

ويصف مآل الأعداء الخنازير الذين سيلقَون مصيرهم بالموت إلى جهنم وبئس المصير، أما قتلى المسلمين فهم شهداءُ أسودٌ، لا يهابون الموت في ساحة الوغى، وقد قابل الشاعر بين الطرفين فقال(٢):

وترى عِلْجًا(٣) قد طُعِنْ لا غَيْرْ

---

(١) السابق، ص٣٢٣.

(٢) السابق، ص١٣٤، ١٣٥.

(٣) العِلْج: الرجل الشديد الغليظ، والجمع أعلاج وعُلُوج، ويُقالُ للرجل القوي الضخم من كُفار =

روحُ يخرُجْ[١] لَسْ ثَمَّ إلَّا خَيْرْ
لجهنم مضى وبِيس المصيرْ
نرى الإسلامْ هُبُوطْ أسد في أسدْ
والنصارى خَنْزِيرْ ورا خنزيرْ
صارت المحنه ما عُ[٢] أيْما صارْ
ومشى بينهم وهو قد حارْ
فخرج من غدير إلى تيارْ
ومضى من فَلُوك إلى زمهرير

"وتكمن ميزة ابن قزمان الكبرى في قدرته على النقل الواقعي، والتصوير التحليلي الدقيق، وإدخال الحركة القصصية في أزجاله، وتمثيله الصوتي في المواقف الدرامية، وظرفه في معالجة موضوعه" [٣].

– صورة يوسف الظافر بالنصر:

الحقُّ أنَّ صورة الأمير يوسف الظافر بالنصر في مقابل صورة أذفونش وجيشه المنهزم قد شغلتا بال الشعراء كثيرًا، بل إنَّ جُلَّ ما قيل في الأمير يوسف من شعر دار حول جهاده في موقعة الزلاقة، فهذا عبد الجليل بن وهبون[٤]في

=

العَجَم عِلْج. اللسان (علج).

(١) الروح عندهم مذكرة.

(٢) ما عُ: أي معه.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين د. إحسان عباس، ص٢٢٠.

(٤) هو أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المُرسِي، من الشعراء المجيدين، هاجر من مُرْسية إلى إشبيلية رغبة في تحسين مستوى معيشته، وتحقيق مجد أدبي، وظل بها إلى أن أصبح أحد شعراء المعتمد، وتوفي بها سنة (٤٨٤هـ). ينظر في ترجمته: الذخيرة ق٢م١/٤٧٣،

=

موقعة الزلاقة يقول في أبيات له مادحًا يوسف بن تاشفين، ومشيرًا إلى حُسن بلائه، ويهنئه فيها ويهنئ المعتمد بن عباد[١] بهذا النصر المبين[٢]: [الوافر]

فَثَارَ إلى الطِّعَانِ حَلِيفُ صِدْقٍ تَثُورُ بِهِ الحَفِيظَةُ والذِّمامُ[٣]

نَمَا فِي حِمْيَرٍ ونَمَتْكَ لَخْمٌ وتِلْكَ وشَائِجٌ فيها الْتِحَامُ[٤]

=

والخريدة، قسم شعراء المغرب والأندلس ج٢/٩٥.

(١) هو أبو القاسم محمد بن عباد المعتمد على الله، حاكم إشبيليه الشاعر، تولى الحكم سنة ٤٦١هـ، واستمر إلى أن خُلع سنة ٤٨٤هـ، ونُفي إلى أغمات حيث أُودع السجن، وتوفي سنة ٤٨٤هـ. ينظر: وفيات الأعيان ٥/٢٤-٣٩، والحلة السيراء لابن الأبَّار (ت٦٥٨:هـ)، تحقيق: د. حسين مؤنس، ط٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م، ٢/٥٤-٦٧.

(٢) عبد الجليل بن وهبون الشاعر وشعره، لسعيد أحمد محمد الغامدي، (رسالة ماجستير) بكلية اللغة العربية، جامعة أم القري، المملكة العربية السعودية ١٤١٩/١٤٢٠هـ، ص٢١١، والأبيات في: الذخيرة ق٢ ج١ /٢٤٥-٢٤٦، وقلائد العقيان ص٧٢.

(٣) الحفيظة: الحميَّة والغضب والغيرة على المحارم، والذِّمام: العهد والأمان والكَفالة والحق.

(٤) كان يوسف بن تاشفين اللمتوني الصنهاجي، والمرابطون ينسبون أنفسهم إلى العرب فى حِمْيَر، وبعض المؤرخين يجعل القبائل الصنهاجية لها أصل من حِمْيَر بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود، أى إن أصلَهم يمانيِّون، وبعضهم يذهب إلى أنهم برابرة لا علاقة لهم بالعرب. ينظر: وفيات الأعيان ٧/١٢٨، والبيان المغرب ٣/٣٨، ودولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، د. سعدون عباس ص١١-١٣، وتجمع المصادر الأندلسية التي تؤرخ لبني عباد على إرجاع نسبهم إلى أصل عربي هو قبيلة لخم اليمنية. ينظر: الذخيرة ق٢ ج١/١٤، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر ١٩٦٢م، ص٤٢٤، ومطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، لأبي نصر الفتح بن خاقان، دراسة وتحقيق: محمد علي شوابكة، ط١، دار عمار، مؤسسة الرسالة، بيروت

=

فيُوسفُ يوسفٌ إذ أنت منهُ كَيَامِنِ لا وَهَى لَكُمَا نِظَامُ

يمدح ابنُ وهبون الأميرَ يوسف بالشجاعة والإقدام في ساحة المعركة والإفراط في النجدة، ويُكَنِّي بقوله: **(حليفُ صدق)** عمّا أظهره للمعتمد من حُسن إخلاصه وولائه، ويرى أن الدافع الرئيس الذي حرَّكه لذلك هو الحَمِيَّة والغضب لدين الله والغيرةُ على المحارم، والرغبة في رفع راية الإسلام، وقمع الشرك والضلال، وفي محاولة من الشاعر لوجود جامع بين المعتمد ويوسفَ إضافة إلى قرابة الدين يُعوِّل على عراقة النسب وكرم الأصل العربي لهما، فيوسف ينتسب إلى قبيلة حِمْيَر اليمنية القحطانية، والمعتمد ينتسب إلى لَخْم اليمنية القحطانية كذلك، ويشبه العلاقة بينهما بإخوة يوسفَ وبنيامين – عليهما السلام– فيجعل المعتمد أخًا له يشد أزره، ويدعو لهذه العلاقة بالقوة، وفي البيت استلهام من التراث التاريخي والديني، و" المعطيات التراثية تكتسب لونًا خاصًّا من القداسة في نفوس الأمة، ونوعًا من اللصوق بوجدانها؛ لما للتراث من حضور حيٍّ ودائم في وجدان الأمة، والشاعر حين يتوسل إلى الوصول إلى وجدان أمته بطريق توظيفه لبعض مقومات تراثها يكون قد توَّصل إليه بأقوى الوسائل تأثيرا عليه"[(١)]، كما لجأ الشاعر في سبيل تصوير العلاقة الوطيدة بين المعتمد والأمير يوسف إلى التكرار **(ثار، تثور)**، و**(نَمَا، نَمَتْك)**، **(فيوسفُ يوسفٌ)**، والترادف في **(وشائج، الْتِحَام)**.

وفي مدحه ليوسفَ بن تاشفين يصور قوة جيشه، ويصف حال الأعداء، فقد حطَّ على العدو بجيش عرمرم كالسيل الجارف سوى بهم الأرض، وملأ

=

١٩٨٣م، ص١٧٠.

(١) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، تأليف: د.علي عشري زايد، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص١٦.

الوادي بجثثهم المتراكمة حتى ليُخَيَّلُ للناظر كأن الأرض فوقها أرضٌ أخرى، فالوهاد صارت إكامًا، وقد ظهرت في هذه المعركة براعة الجيش الإسلامي والقائدين ابن عباد وابن تاشفين: [الوافر]

نهجتَ لِسيْلِهِ نَهْجًا فَوَافى وفي آذِيِّهِ الطَّامي عُرَامُ(١)

فَهِيلَ به كثيبُ الكُفْرِ هِيْلاً وكُلُّ رُفَيغَةٍ منهُ رُكَامُ(٢)

وصاروا فوقَ ظَهْرِ الأرضِ أرضًا كأَنَّ وِهَادَهَا منهم إِكَامُ(٣)

ونرى جمال التصوير في وصف جيش الأمير يوسف حيث استعان الشاعر بالصورة البصرية التي تفيض بالحركة، فصوره بالسيل الجارف ذي الأمواج المتلاطمة العالية الذي يقتلع كلَّ ما يمر عليه، وكان من نتائجه تفرقُ جيش العدو وانهزامه، وامتلاء الوادي بجثثهم المتراكمة التي شكلت أرضًا أخرى فوق الأرض، فصارت منها الوهادُ إكامًا، وهذا ما سجلته كتب التاريخ وأنه لكثرة القتلى من الاعداء" عمل المسلمون من رؤوسهم بعد ذلك صوامعَ يؤذنون عليها"(٤)شفاءً لقلوبهم، والأبيات تزخر بالأوصاف والحركة المكثفة، وجيشٌ هذا وصفُه! فكيف يكون صاحبه؟! ففي وصف بأسه وشدته وصفٌ لشدة بأس

---

(١) الآذيُّ: الموج الشديد والجمع: أواذِيّ، وعُرَام الجيش: شدته وكثرته، والعُرَامُ: الشدة والقوة والشراسة. اللسان (أذي، عرم) .

(٢) الرَّفْغ: أسفل الفَلاة، وأسفل الوادي، والأرض الكثيرة التراب. اللسان (رفغ)، وحُكي أن موضع المعركة على اتساعه ما كان فيه موضع قدم إلا على جسد أو دم. وفيات الأعيان٧/١١٧.

(٣) الوِهَاد: جمع وَهْدَة، وأرضٌ وَهْدَة: منخفضة بها هُوَّة ناتجة عن تدفق السيول، والوَهْدَة: المطمئن من الأرض، والمكان النمخفض كأنه حفرة، والإكام: جمع أَكَمَة، وهي التلّ المرتفع. اللسان (وهد، أكم).

(٤) الذخيرة ق٢م١/٢٤١، والروض المعطار ص٢٩١.

يوسف، وفي قوله: **(كَثِيبُ الكُفر)** أراد جيشَ العدُوّ، وفي إضافته إلى الكفر دليل على أنهم على باطل، وأن الباطل زائلٌ وزهوقٌ لا محالة مهما طال طغيانه واستبداده، وفيه تأثرٌ بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾[1]، وفي قوله: **(كثيب الكُفر)** صور جيش العدو بالكُثبان الرملية إيحاءً بوهنه، والكثيب المَهِيل هو اللَّيِّن الذي إذا مسسته تتابع.

وفي معرض تصوير قوة جيش يوسف استخدم الشاعر المفعول المطلق في (نهجتَ نهجًا، هِيْلَ هِيلاً) للتأكيد، فقد أجاد الشاعر استخدام الألفاظ والعبارات التي أسهمت في تشكيل الصورة، كما كان للجناس دوره الموسيقي في تشكيل الصورة **(الأرض أرضًا، عرام، ورُكام وإكام)** التي نجحت في إبراز المعنى الذي أراده الشاعر، وهو تغلب الحق على الباطل.

ويَسْخَر الشاعر من جيش الأذفونش؛ فرغم كثرته وأنه بلغ أكثر من ستين ألف جندي[2]فإنه لا يسير وفق نهج، ولا يجمعه نظام، وقد وظَّف الشاعر صيغة المبالغة **(عديد)** على وزن **(فَعِيل)** توظيفًا جيدًا يوحي بكثرة عدد الجيش، وأكدَّ المعنى بقوله: **(لا يشارفه حساب)**، وكنَّى عن فقد الزعيم والقائد للجيش بقوله: **(ولا يحوي جماعتَه زمامُ)**، وذلك في قوله[3]:

عَدِيدٌ لا يُشارِفُهُ حِسَابٌ ولا يَحْوِي جَماعَتَهُ زِمَامُ

تآلفَتِ الوحُوشُ عليه شَتَّى فما نَقَصَ الشَّرابُ ولا الطَّعامُ

فإنْ يَنْجُ اللَّعِينُ فلا كَحُرٍّ ولكنْ مِثلما يَنْجُو اللِّئامُ

(١) سورة المزمل من الآية (١٤).

(٢) دولة المرابطين في المغرب والأندلس ص٨٣.

(٣) عبد الجليل بن وهبون الشاعر وشعره ص٢١٢.

وهذا الجيش صار نهبًا لوحوش الإنس المتمثلة في جنود جيش الأمير يوسفَ ووحوشِ الجو، حيث ضمن لها طعامًا آمنًا، وقد صور الشاعر نجاة الأذفونش من المعركة بفرار اللئام، فإنه لم ينج بعزة وكرامة وفوز في ميدان الحرب، بل فرَّ مُوَلِّيًا الأدبار مُثخنًا بالجراح يجرُّ أذيال الخيبة.

وفي القصيدة نفسها يذكر الشاعر استعداد المعتمد لمواجهة جيش الروم، حيث حشد الرجال الأكفاء المدربين على خوض غمار الوغى سليلي الحروب، وزوَّد جيشَه بشتى ألوان العدة والعتاد[1]:

دعا للحربِ كُلَّ سليلِ حَرْبٍ يُخلِّفُهُ عن الهيجَا نِظَامُ

تَعَرَّقَ لحمُهُ واخضرَّ جلدًا فهبَّ مع الحُسَام بهِ حُسَامُ

ويصور الشاعر حَميَّة المعتمد مستخدما المجاز في قوله **(تعرَّق لحمه)** حيث أسند العرق إلى اللحم وهو في الأصل يخرج من الجلد، وفيه كناية أيضا عن شدة حرارة جسمه حتى صار اللحم يتصبب عرقًا، ولم يكتفِ المعتمد بذلك بل ضمَّ إلى جيشه **(عِظْلِم الصحراء لونًا)**، وأراد يوسفَ بن تاشفين، يقول:

وجاء بعِظْلِمِ الصَّحْراء لونًا ولكن ثبتُ مَفْرِقِهِ ثَغَامُ[2]

فاستعار العِظْلِم لتصوير قوة الأمير يوسف وشدة بأسه، وفي إيثاره وصفه بـ**(العِظْلِم)** إشارة ليس إلى لونه الأسود فقط كما ذكرت كتب التراجم، بل إلى قوته وشدة بأسه؛ **فالعِظلِم**: الليل المظلم المشتد السواد، وكأن مجيء الأمير يوسف كالليل المُطْبق عليهم بسواده، وفي إضافته إلى **(الصحراء)** تقوية لمراده، فرجال

---

(١) عبد الجليل بن وهبون الشاعر وشعره ص٢١٢، وخريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس ٢/٩٩-١٠٠.

(٢) العِظْلِم:نبت يستخرج منه صِبغ أزرق ويُعرف بالنِّيلة، والعِظْلِم الليل المظلم المشتد السواد المعجم الوسيط (عظل)، وأراد به: **(يوسف بن تاشفين)**، ومَفْرِق الشعر: موضع افتراقه، والثَّغام: شجر أبيض الثمر والزهر يُشبَّه بياض الشيب به.

الصحراء معروفون بأجسادهم القوية المتينة القادرة على تحمل المشاق والصعاب، والصحراء منبع الإيمان والرجولة التي صقلتها التجارب والأحداث، ونلمح الطباق بين **(عِظْلِم)** و**(ثَغَام)** فإذا كان يوسف أسود اللون، فإنَّ الشيب قد علا شعره، فهو ليس حدثا غِرًّا بل أصقلته التجارب والأحداث حيث كان وقتها في التاسعة والسبعين من عمره، ولم تمنعه سن الشيخوخة من قيادة المسلمين نحو الظفر والنصر، ورغم احتياطات الأذفونش، وأنه بَيَّت أمرًا بليل للمسلمين، حيث كان الموعد في المناجزة يوم السبت فغدر الأذفونش ومكر، وباغتهم يوم الجمعة، لكن المعتمد ويوسف فَطِنا لمثل هذا الأمر، وعلما أنها حيلةٌ منه وخديعة[١] ، فأعدَّا العُدَّة، ولم يَثْنِ ذلك من عزيمتهم بل كانوا شديدي المراس، أقوياء الشكيمة، وانقلب السحر على الساحر، وانقض المسلمون عليهم كالصواعق التي لا تسكن نارها، بل كان مطر السماء من أعضادهم ورؤوسهم، يقول ابن وهبون[٢]: [الوافر]

فلَمْ يَثْنِ الْقَنَا ما بيَّتُوهُ ... وتحتَ النومِ بأسٌ لا ينامُ

مَضَوْا في أمرهم سَحَرًا ودارتْ ... بما عَقَدُوا من الحِلْفِ المُدامُ

فردُّوها على الشَّفَراتِ بيضًا ... وحُدِّدَ في تَعاطِيها النِّدام

وما أخَذَتْهُمُ الأسيافُ لكن ... صَوَاعقُ لا يَبُوخُ لها ضِرامُ[٣]

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان ١١٧/٧، ونفح الطيب ٣٦٥/٤، وجاء فيه: "ثم أصبح يوم الخميس، فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول: غدًا يوم الجمعة وهو عيدكم، والأحد عيدنا، فليكن لقاؤنا بينهما، وهو يوم السبت، فعرَّف المعتمدُ بذلك السلطان يوسفَ، وأعلمه أنها حيلةٌ منه وخديعة، وإنما قصده الفتك بنا يوم الجمعة، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار، وبات الناسُ ليلتهم على أُهْبة واحتراس".

(٢) عبد الجليل بن وهبون الشاعر وشعره ص٢١٣.

(٣) يبُوخ، باخت النار والحرب: سكنت وفترت وهدأت. ينظر: اللسان (بوخ)

إذا مـــا بَرْقَـــةٌ بَرَقَـــتْ علـــيهم فـــإنَّ القَطْـــرَ أعْضـــادٌ وهَـــامُ

والصورة الكلية توحي بثبات جيش المسلمين في وجه كل هذه القوى المتواطئة عليه حتى تحقق له النصر، وقد استعان الشاعر في صورته بوسائل تصويرية، مثل: الحركة واللون، فالحركة تظهر في **(للحرب/الهيجا/هبَّ/ الحسام/ القطر)**، واللون في **(اخضرَّ/عظلم الصحراء/ثغام/ بيضًا/برقة برقت)**، والصوت في **(صواعق/الندام/ ضرام)**، وفي الأبيات تلتقط عدسة تصوير الشاعر أدق الأشياء من رماح مُثَقَّفة، وسيوف قاطعة بأيدي فرسان مغاوير أشداء، وصواعق ملتهبة، ويصور الشاعر لمعان سيوفهم في سرعة انقضاضها على الأعداء بلمعان البرق الخاطف الذي يتبعه مطر من دماء الأعداء وأشلائهم المتناثرة من أعضاد ورؤوس، أما معجمه فاستقاه من ساحة الحرب والبيئة **(الحرب، الحسام، القنا، الشفرات، الأسياف، أعضاد، هام، برق، قطر)**.

وإذا كان الجيش منظمًا مدربا مجهزًا، فإنَّه بالضرورة يعكس صورة قائده، وكان من دهاء يوسف بن تاشفين أنْ أمر بعبور الجِمال فعبر منها ما أغصَّ الجزيرة، وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جَمَلاً قطُّ ولا خيلُهم، فصارت الخيلُ تجمح، وكان له في عبورها رأي مصيب، فكان يُحدق بها عسكره، ويحضرها للحرب، فكانت خيل النصارى تُحجِم عنها[1]، أما الأعداء فقد عجزوا عن مقاومتهم من هول ما رأوه وتعطَّل السلاح في أيديهم.

إنَّ ابنَ الصحراء الجافة استطاع بفضل إيمانه، واستلهام مبادئ الإسلام أن يتفوق على تنظيمات وخطط جيوش أوروبا النصرانية، وصَنَع نصر **(الزلاقة)** بحنكتة السياسية وخبرته ورباطة جأشه، فكانت **(يرموكا)** جديدة زعزعت جيوش

(١) ينظر: وفيات الأعيان ١١٦/٦، ونفح الطيب ٣٦١/٤.

الفرنجة، وغدا اسمها مقترنا باسمه، وكأن المعركة لا تتعداه إلى آلاف الجنود المجاهدين تحت رايته(١).

وللقصيدة تتمة في وصف حال الأذفونش بعد أن نال منه الأمير يوسف، وكان قد اضطره الخَوَر يومئذٍ للفرار، فَتسنَّمَ قُنَنَ الجبال الشاهقة والأوعار إلى أن جَنَّه ثوبُ الظلام، ودخل طُليطلة مع شِرذمة من أتباعه قليلة، وبقيةٍ من طائفة له مخذولةٍ مغلولة مغلوبة، بعد أن قُتِل رجاله وقواده، فوصف ذلك كله عبدُ الجليل، فقال(٢):

فـأينَ العُجْـبُ يـا أذفـونشُ؟! هـلاّ تجَنَّبْـتَ المَشِـيخةَ يـا غُـلامُ

ستسـألُكَ النسـاءُ ولا رجـالُ فحَـدِّث مـا وراءكَ يـا عِصـامُ

وراقِبْهـا بأرضِـك طالعـاتٍ كمـا تُهْـدي صَـواعِقَها الغَمَـامُ

جِيـادٌ تَسْـتفيدُ الفُـتْخُ منهـا ويَفـرَقُ فـي مسـارحِها النَّعَـامُ

أقمـتَ لـدى الـوَغَى سُـوقًا فخُـذْها مُنَـاجَزَةً وهَـوِّنْ مـا تُسـامُ

فـإنْ شِـئتَ اللُّجَـينَ فـثَمَّ سـامُ وإن شـئت النُّضَـارَ فـثَمَّ حَـامُ

رأيـتَ الضَّـربَ تصـليبًا فصَـلِّبْ فأنـتَ علـى صَـليبكَ لا تُـلامُ

أنـامَ رجالُـكَ الأشْـقَوْنَ؟ كـلاَّ وهـل يحلُـو بـلا رأسٍ منـامُ؟!

رَفَعْنـا هـامَهُم فـي كُـلِّ جِـذْعٍ كمـا ارتَفَعَـتْ علـى الأيْـكِ الحَمَـامُ(٣)

---

(١) دولة المرابطين في المغرب والأندلس ص١٥١ بتصرف.

(٢) ينظر: الخبر والأبيات في: الذخيرة ق٢م١/٢٤٦-٢٤٧، وعبد الجليل بن وهبون الشاعر وشعره ص٢١٣.

(٣) استولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الآلات والسلاح والمضارب والأواني وغير =

نَضَـــا أَدْرَاعَـــهُ واجتـــابَ لـــيلاً يَـــوَدُّ لَـــوَ انَّ طُـــولَ اللَّيْـــلِ عَـــامُ

ولـــيس أوانَ للأَيْـــمِ انســـلاخٌ ولكـــنْ فـــي ضـــمائِرِهِ احتِـــدامُ[١]

ســـيَفْنى حَسْـــرةً ويَبِيـــدُ مهمـــا تخطَّتْـــهُ القَنـــاةُ أو الحُسَـــامُ

فالشاعر يذكر هزيمة ملك الروم تحت الظلام، وفي قوله: **(ستسألك النساء ولا رجال)** يرسم صورة للواقع حيث باغت يوسفُ معسكر العدو من الخلف، ووصل إلى خيامه وأحرقها، وأباد حراسها ولم ينج منهم إلا القليل، وقد جاءت الأخبار ألفونس من داخل المعسكر باستيلاء المرابطين عليه، وأنه خسر حوالي عشرة آلاف قتيل[٢]، ولما رجع إلى موضعه سأل عن شجعانه وأبطال معسكره فوجد أكثرهم قد قُتلوا ولم يسمع إلا نياحَ الثكالى عليهم، وقد ضمَّن شعره المَثَل في قوله: **(فحدِّث ما وراءك يا عصامُ)** من باب التهكم والسخرية من عُجْب الأذفونش الذي عاد من المعركة بلا رجال، فليستجمع قواه ويجيب النساء، ويُضرب هذا المثل في استعلام الخبر[٣].

=

ذلك، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين، فاجتمع من ذلك تلٌّ عظيم. وفيات الأعيان ١١٨/٧، ونفح الطيب ٣٦٨/٤.

(١) الأيْم: بسكون الياء الحية الذكر، ومعروف أن الحية تنسلخ من جلدها كلَّ عام مرة.

(٢) ينظر: دولة المرابطين في المغرب والأندلس ص ٨٩، ٩٠.

(٣) ورد هذا المثل أول ما ورد في قول النابغة الذبياني في منعه من الدخول على النعمان بن المنذر، وكان قد عرض له مرض احتجب منه فأُرجف بموته، وقال أبياتا منها قوله:

فإنِّي لا ألومُكَ في دُخُولٍ *** ولكنْ ما وراءكَ يا عِصَامُ

وعصام حاجب النعمان، يقول: لست ألومكَ بمنعكَ إياي عن الدخول إليه، ولكن أعلمني حقيقةَ خبره، وقيل غير ذلك في مورد المثل. ينظر: كتاب جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (ت:٣٩٥هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، ط٢، دار

=

ويرسم الشاعر صورة توضح العلاقة بين خيول المسلمين وطيور الفُتخ والنَّعام، فخيول المسلمين تجلب النفع والفائدة لطيور الفُتخ الجارحة بتوفير طعامها من جثث الموتى، ومثل هذه الساحة المُلتهبة تُثير الفزع والخوف بين أسراب النعام في قوله: **(جياد تستفيد...)**، ويلقي الشاعر سؤالا على طاغية الروم: **(أنام رجالُكَ الأشقَوْنَ؟)** ثم يبادر بالجواب: **(كلاَّ، وهل يحلو بلا رأس منام؟)** والاستفهام هنا مجازي، غرضه التهكم والسخرية، وفي البيت كناية عن التمكن من الأعداء وقطع رؤسهم، ويؤكده البيت:

رَفَعْنا هامَهُم في كُلِّ جِذْعٍ كما ارتَفَعَتْ على الأيْكِ الحَمَامُ

وفي البيت صورة بصرية جمالية، فالشاعر يصور رؤوس الأعداء، وقد رُفعت على جذوع الشجر بطيور الحمام وقد اصطفت على الأيْك، ويُكَنِّي عن تخفف الأذفونش ومَنْ بَقِي معه بإلقاء الدروع في قوله: **(نضا أدراعه)**، ولشدة الهزيمة التي لحقته وجيشَه يتمنى لو دام الليل بظلامه عليهم، وربما أخذ الشاعر معني البيت من قول المعري[1]: [البسيط]

=

الجيل، ودار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ٢/٢٥٥، ومجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني(ت٥١٨هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة١٣٧٤هـ/١٩٥٥م،٢/٢٦٢-٢٦٤، واللسان (عصم) .

(١) والمعني: إنما يود الخيال أن يدوم له الظلام ويزاد فيه سواد القلب والبصر؛ ليكون سببا لئلا يفارقه. شروح سِقط الزَّنْد، للتبريزي والبطليوسي والخوارزمي، تحقيق الأساتذة: مصطفى السقا، وعبد الرحيم محمود، وعبد السلام هارون، إبراهيم الإبياري، وحامد عبد المجيد، إشراف: د. طه حسين، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج١/١١٩ .

يَــوَدُّ أنَّ ظَــلاَمَ اللَّيــلِ دامَ لــهُ وزِيــدَ فيــه سَــوادُ القلْــبِ والبصَــرِ

ويشبه هروبَ أذفونش بالليل قبل طلوع الشمس بانسلاخ الحية من جلدها، وإن لم يكن الوقتُ وقت الانسلاخ، فقد تعجل لما يعتلج في نفسه من الخوف والفزع.

وفي معرض الحديث عن افتداء الروم أسراهم بعد موقعة الزلاقة يصور الشاعر آثار النصر في رفع شأن الإسلام والمسلمين، وإذلال النصارى الكافرين، فالعُرب سادتهم، وتشهد بذلك السيوف والرماح، فقد أيقن الروم أنْ ليس يعصمهم سهل ولا جبل من هذا البطل الذي ذلَّت له رقاب فرسانهم، واعتز به الإسلام، فيقول(١): [البسيط]

أَتُنكــرُ العُجْــمُ أن العُــربَ ســادتُها وتشــهدُ البِــيضُ والخَطِّيَّــةُ السُّــمُرُ

لمَّــا تعــارضَ دونَ الشُّــكْرِ كفــرُهمُ عــادتْ بَــوَادِرَ فــيكم تِلكُــمُ البِــدَرُ(٢)

وَهَــبَّ عــن كــلِّ ديــنارٍ لَهُــمْ بَطَــلٌ كخــالصِ التِّبْــرِ مَسْــبُوكٌ ومُخْتَبَــرُ

فلْيَقْبَلُوهــا أُلُوفًــا مِــنْ أُسُــودٍ وَغًــى تَزْكُــو علــى السَّــبكِ لا جُــبْنٌ ولا خَــوَرُ

ولْيَرْقُبوا مِنْ أميرِ المسلمينَ، ومِنْ مُؤَيَّــدِ الــدِّينِ لــيلاً مــا لــه سَــحَرُ

ويشير الشاعر إلى طمع الأذفونش بعد استيلائه على طُليطلة في حصون المعتمد المنيعة إضافة إلى الضريبة وزيادتها، الأمر الذي حمله على جواز

(١) عبد الجليل بن وهبون الشاعر وشعره ص١٧٠، والذخيرة ق٢م١/٢٥٥.

(٢) بوادر جمع بادرة بمعنى بداية أو علامة أو إشارة، والبَدْرة كيس فيه مقدار من المال يُتعامل به، ويُقدم في العطايا، ويختلف باختلاف العهود، وجانس بين بوادر وبِدَر.

يوسفَ بن تاشفين الجزيرةَ والاستظهارِ به على العدو[١]، وأنه بدلا من أن يحصل على مراده فاجأه المسلمون بحرب لا قِبَلَ له بها، وقوله:

وَهَبَّ عن كلِّ دينارٍ لَهُمْ بطَلُ كخالصِ التِّبْرِ مَسْبُوكٌ ومُخْتَبَرُ

مستمد من قول المتنبي من قصيدة له في مدح سيف الدولة يذكر فيها استنقاذه ابنَ عمه أبا وائل تغلبَ بن داود بن حمدان لمّا وقع في الأسر، وكان أبو وائل قد ضمن لهم وهو في الأسر خيلاً طلبوها منه، فأقاموا ينتظرون وصول الخيل والمال، فصبَّحهم جيش سيف الدولة وأبادهم[٢]: [من المتقارب]

ولو كنتُ في أسْرِ غيرِ الهَوَى ضَمِنْتُ ضَمانَ أبي وائلِ

فَدَى نفسَهُ بضَمان النُّضَار وأعطى صُدورَ القَنَا الذَّابلِ

ومَنَّاهُمُ الخَيْلَ مَجْنُوبَةً فجِئْنَ بكُلِّ فَتًى باسِلِ

ويصور جنود المسلمين أسودًا في ساحات الحرب أشداء أقوياء **(أُسُود وَغًى)** معتادين على القتال، ويؤكد شجاعهتم بنفي الجبن والضعف عنهم **(لا جُبْنٌ ولا خَوَرُ)** فليقبلوهم، وليرقبوا من أمير المسلمين ليلاً ما له سَحَر طويلٌ دائم عليهم، كأنه لا يعقبه نهار، وهذا يوحي بتجدد المعارك بينهم وبين المسلمين؛ لذا سيعيشون في حالة توجس وترقب دائمين.

ولمحمد بن إبراهيم بن المواعينى مدحة يقول فيها مخاطبا الملثمين أوالمرابطين[٣]: [الكامل]

---

(١) ينظر: نفح الطيب ٤/٣٥٦-٣٥٩.

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي، ص٢٥٩-٢٦٠، وأراد لو أسره أمر غير الحب لخرج من أسره بحيلة وضمان كما ضمن أبو وائل الذهب لآسره، لكنه أعطاه صدور الرماح إذ استنقذه سيف الدولة بغير فداء.

(٣) هو أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن المواعيني (ت:٥٧٠هـ)، والأبيات من قصيدة يمدح =

طُولُـوا وصُـولُوا فالمَنَاسِـبُ حِمْيَـرٌ أهــلُ المَفَــاخِرِ والنَّــدَى والنَّــادي

للقــومِ فــي كُــلِّ الــبلادِ رِيَاسَــةٌ تَحْكِــي بنــي العبَّــاسِ فــي بغــدادِ

أضْـحَتْ مجالسُـهمْ سُـرُوجَ جِيَـادِهمْ إنَّ السُّــرُوجَ مَجَــالسُ الأَمْجَــادِ

فالشاعر يصور المرابطين بأنهم أهل المفاخر والكرم والرياسة، وهم يحاكون العباسيين في سيادتهم، ولكثرة خروجهم إلى الغزو والجهاد فهم يقيمون مجالسهم ويتشاورون في شؤونهم على ظهور الخيول؛ فلا وقت لديهم للدعة والراحة، وهذا شأن من يبتغي السؤدد والمجد، وقد نقل الشاعر هذه المعاني إلينا عن طريق الصورة ، فـ " الصورة الأدبية أصدق تعبير عما يجول في النفس من خواطر وأحاسيس، وأدق وسيلة تنقل ما فيها إلى الغير بأمانة وقوة، وأجود مُوصِّل إلى الآخرين في سرعة وإيجاز "[1]، والصورة فى البيت الأخير بديعة، وهي تنطق بحال يوسف بن تاشفين.

وفي الزجل يتحدث ابن قزمان عما جرى في موقعة الزلاقة، فيقول[2]:

أيْ نَهَارْ كان حُشِد إليه الورى

وجرَى للنصارى فيهْ ما جرى

.....

القتالْ ساكتْ والحديدْ يستغيثْ

صَبَاح الجمعهْ قاموا وقتَ الصباحْ

=

بها الزبير بن عمر الملثم والى قرطبة، وهي في ترجمته في المُغْرب في حُلَى المغرب ٢٤٧/١ .

(١) الصورة الأدبية، د. علي علي صبح، ص١٧٢.

(٢) ديوان ابن قزمان القرطبي، ص١٣٣-١٣٤.

جمعُوا فيهْ بين اللحمْ والرِّماحْ
بكَرَ الموت إلى ذِيكَ الأرواحْ
على أنَّهْ في كل وقتِ بَكِيرْ

وتبرز الصورة الفنية في استعمال الشاعر أسلوب التشخيص في بناء صورته الاستعارية في قوله: **(القتال ساكت، والحديد يستغيث)** حيث شبه القتال بإنسان ساكت والحديدَ بإنسان يستغيث يحس ويتحرك وينبض بالحياة؛ ليصور قوة جيش ابن تاشفين وبسالته في أرض المعركة، وقد كان النصر حليفَ المرابطين؛ حيث أذاقوا الأعداء هزيمة نكراء، ويرجع سبب الانتصار في الزلاقة إلى خُطط ابن تاشفين القتالية، وأساليبه الجديدة في القتال.

وقد بشر المعتمدُ حليفَهُ الأميرَ يوسف بالنصر على الأعداء قبل خوض المعركة، فحينما كانت جيوشُ المسلمين بالأندلس مع حليفهم يوسف تستعدُّ لخوض معركة الزلاقة أمر المعتمدُ مُنجِّمَه أبا بكر بن يحيى الخَولاني بأخذ طالع الوقت والنظر فيه، فوجده أوفق طالع، فكتب المعتمد إلى الأمير يوسفَ بهذه الأبيات[1]: [مجزوء الكامل]

غَـــزْوٌ عليـــكَ مُبَـــارَكٌ فـــي طَيِّـــهِ الفَـــتْحُ القريـــبْ
للهِ ســـــــيفُكَ إنَّـــــــهُ سُـــخْطٌ علـــى دِيـــنِ الصَّـــلِيبْ
لا بُـــدَّ مِـــنْ يَـــومٍ يَكُـــو نُ لـــهُ أخٌ يـــومُ القَلِيـــبْ[2]

---

(١) ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية، جمعه وحققه: أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، مراجعة: د. طه حسين، وزارة المعارف العمومية، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥١م، ص٥٣.

(٢) يعني يوم بدر، والقَلِيب: هي البئر القديمة المهجورة، وأصحاب القليب: هم القتلى من جيش المشركين يوم بدر.

فالمعتمد يستبشر لحليفه بالنصر، ويبارك غزوته التي يعقبها النصر من الله والفتح القريب، وهذا الأمر ليس بغريب على الأمير يوسف؛ فشهرة سيفه البتَّار مَضاء وعزيمة تسبقه، وشجاعته يعرفها الداني والقاصي، ولا يكتفي الشاعر بذلك بل يُبشره بأن هذا اليوم سيكون مثل يوم غزوة (بدر الكبرى) وهزيمة المشركين، وهو هنا يستلهم التراث الديني، فبعد انتهاء غزوة بدر أمر الرسولُ (صلى الله عليه وسلم) بالقتلى أن يُطرحوا في القَلِيب، وفيهم صناديد الكفر عتبةُ بن ربيعة، وشيبةُ بن ربيعة، وأُمَيَّةُ بن خلف، وأبو جهل بن هشام، فلما أُلْقُوا وقف عليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا أهل القَلِيب، بئس عشيرةُ النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدَّقَني الناسُ، وأخرجتموني وآواني الناسُ، وقاتلتموني ونصرني الناسُ، ثم قال: هل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقًّا؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا، فقال المسلمون: يا رسولَ الله، أتُنادي قومًا قد جَيَّفُوا؟ قال: ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يُجيبوني[1].

والصورة مستمدة من قول أبي تمام في مدح المعتصم حين ربط فتح عمورية بغزوة بدر[2]: [البسيط]

إنْ كان بينَ صُرُوفِ الدهرِ من رَحِمٍ موصُولةٍ أو ذِمَامٍ غيرِ مُنقَضِبِ

(١) ينظر: السيرة النبوية لأبي محمد عبدالملك بن هشام (ت٢١٨هـ)، تعليق د. عمر عبد السلام تدمري، ط٣، نشر دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٠هـ/١٩٩٠م،ج٢/٢٨٠-٢٨١، وتاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، مصر ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م،٢/٤٥٦.

(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، ط٤، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف، القاهرة ١٩٥١م، ١/٧٣.

فبَـيْنَ أيامِـكَ اللاتــي نُصِـرْتَ بهـا وبــينَ أيَّــامِ بَــدْرٍ أقــربُ النَّسَــبِ

وفـي ذلـك دلالـة علـى أن معـارك الممـدوح هـي امتـداد لمعـارك الإسـلام الكبـرى. وقـد امتـدح الشـعراء الأميـر يوسـف بـن تاشـفين فـي حركاتـه وغزواتـه، وصُدوره وورروده، فبعد انتهاء المعركة يذكرُ المعتمدُ بلاءَ يوسف في يوم الزلاقة، ويشيد بفضله في تثبيت عُرى الإسلام في الأندلس، فيقول[١]: [المتقارب]

وقَلْبِــي نَــزُوعٌ إلــى يُوسُــفٍ فَلَــوْلا الضُّــلُوعُ علَيْــهِ لَطَــارَا

ويَــومَ العُرُوبــةِ ذُدتَ العِــدَا نَصَــرْتَ الهُــدَى، وأَبَيْــتَ الفِــرَارَا

ثَبَــتَّ هُنَــاك وإنَّ القُلُــو بَ بَــيْنَ الضُّــلُوعِ لَتَــأْبَى القَــرَارَا

كنَّـى المعتمد عن يوم الزلاقة بـقوله: **(يـوم العُروبـة)**[٢]؛ لأنـه أعاد للعرب هيبـتَهم وسيادتهم فـي نظـر العجـم، مبـرزًا نتـائج المعركـة: **(ذُدتَ العِـدا، نصـرتَ الهُدى)**، وفيها جناس بديع أضفى لونًا موسيقيا على البيت، ويرسم صورةً عن طريق الكناية لحُسن بلاء الأمير يوسف وجميل صبره وثباته في أرض المعركة: **(وأبيـت الفـرارا)**، فهو الفارس المغوار المقدام الذي يثبُت في مواجهة العدو ولا تُحدِّثه نفسُه أبدا بالفرار رغم أن قلوب الشجعان ترتجف ويُصيبها الذعر والفزع من هول العدو حتى تكاد تقفز من بين الضلوع كقول ربنا: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[٣]، أما هو فلا يأبه بالعدو، وبفضله كان النصرُ حليفَهم، وظلت

(١) ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية، ص٩٧–٩٨.

(٢) وقد وصف ابن جمهور أحد أدباء إشبيلية يوم الزلاقة بيوم العروبة أيضًا في قوله:

لم تعرفِ العُجْمُ إذ جاءَتْ مُصَمِّمةً * يومَ العُروبةِ أنَّ اليومَ للْعَرَبِ

ينظر: الذخيرة ق٢م١/٢٥٦، والحلة السِّيَراء ٢/١٠١.

(٣) سورة الأحزاب من الآية رقم ١٠.

الأندلس في قبضة المسلمين قرونًا أخرى بعد أن ظن العدو أنه تمكن منها، وقد "مَلَك ابنُ تاشفين المغربَ أسعدَ مُلكٍ وأتَمَّه نصرًا على العدو، ولم يُهزم له قطُّ جيشٌ، ولا رُدَّت له رايةٌ بمُلك، والله يؤتي ملكه من يشاء"[1]، ولذا يرى الشاعر أبو بكر محمد بن أحمد[2] أن مفاخر الأمير يوسف تُروى وتُتلى كما يُروى الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، وذلك في معرض مدحه لولده إبراهيم، فيقول[3]: [الوافر]

أبا إسحاقَ يا بْنَ أميرِ مُلْكٍ يُقَصِّرُ عنهُ مُلكُ التُّبَّعِيِّ[4]

لِيُوسفَ مَفْخَرٌ يُرْوَى ويُتْلَى كَمَا يُتْلَى الْحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ

والمبالغة واضحة في البيتين؛ إذ يرى الشاعر أن مُلك التبابعة دون مُلك الأمير يوسف، وزادت مبالغته في البيت الثاني حين عدَّ مفاخر يوسف تُروى وتُتلى كما يُتلى الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم).

ويرسم أبو بكر الصيرفي صورةً لموكب الممدوح وقت قُفوله بالنصر آخر النهار وقت الأصيل، فالخيل تتهادى وتتبختر في مِشيتها صاهلةً، تُبشر الناظر إليها بالنصر المُبين؛ فيُهلل الناسُ فور مرآهم يوسفَ: **(يا حِمَى المُلْك عشيه)**، وإذا كانت الشمس في وقت غروبها، فغُرَّة الممدوح مشرقة مضيئة؛ لأنها تحمل

---

(١) البيان المُغرب ٢١/٣.

(٢) هو ذو الوزارتين المُشرَّف أبو بكر محمد بن أحمد بن رُحَيم. ينظر ترجمته في: قلائد العقيان ص٣٣٧- ٣٦٦، والمغرب ٤١٧/٢

(٣) قلائد العقيان ص٣٦٠.

(٤) يشير إلى مُلك التبابعة ملوكِ اليمن، ويُضرب بهم المثل في سَعَة المُلك وجلاله.

في مقدمها النصر والخير، وفيها إشارة إلى علو مكانة الممدوح ومنزلته الرفيعة بين الناس، فيقول(١):

اطلعتْ من الطِّراد خيلُه مع الأصيل
مطلعات للهوادي تتهادي بالصهيل
فانبرى الكلُّ يُنادي وصفَ مرآه الجميلْ
يا حمَى المُلك عشيَّه وعلى الجواد الأشقر
غُرَّة الشمس المُضيَّه تاشفين الله أكبر

– صورة يوسف التَّقِي:

يصرح الشاعر بأن تقوى يوسفَ وخوفَه من ربه كان باعثًا له على سرعة الاستجابة لنصرة الدين وإخوانه المسلمين، وهذا هو الأساس الذي قامت عليه دولة المرابطين، ولم يستطع الشعراء إغفاله، ولولاه لعادت الجزيرة تحت حكم الروم، فلم يكن غرضُه الملك والمال، ودليل ذلك أنَّ جنودَ المسلمين أقامت في موقع معركة الزلاقة أربعة أيام لتجمع الغنائم، فلما حصلت عَفَّ عنها يوسف وآثر بها ملوكَ الأندلس، وعرَّفَهم أن مقصوده إنما كان الغزو لا النهب(٢)، فيقول المعتمد بن عباد(٣): [المتقارب]

ولولاكَ يا يُوسفُ المُتَّقِي رأَيْنَا الجزيرةَ للْكُفْرِ دارَا
رَأَيْنَا السيوفَ ضُحَى كَالنُّجُومِ وكَاللَّيْلِ ذَاكَ الْغُبَارَ الْمُثَارَا
فَلِلَّهِ دَرُّكَ في هَوْلِهِ لقَدْ زادَ بأْسُكَ فيهِ اشْتِهارَا

(١) جيش التوشيح ص١٢٥.
(٢) ينظر: وفيات الأعيان ١١٧/٧.
(٣) ديوان المعتمد بن عباد ص٩٨.

تَزِيـــدُ اجْتِـــراءً إذا مـــا الرِّمَـــا حُ عِنْـــدَ التَّنَـــاجُزِ زِدْنَ اشْـــتِجارَا[1]

إذا نَـــــارَ حَرْبِـــــكَ ضَـــــرَّمَتَها حَسِـــبْنا الأَسِـــنَّةَ فيهـــا شَـــرارَا

ويحمل البيت الأول معاني دينية، فقد أدرك المعتمدُ أنَّ ابنَ تاشفين ورعٌ تقيٌّ نقيٌّ، فينعته بالتقوى: **(يا يوسفُ المُتَّقِي)**، وهذا ما أثبتَتْهُ له كتبُ التاريخ: فقد "كان خائفًا لربه، كتومًا لسرِّه، كثيرَ الدعاء والاستخارةِ، مُقْبِلا على الصلاة، يأكل من عَمَلِ يدِه" [2]، والشاعر يرسم له صورة القائد المسلم التقيّ النقي، وينظر إليه نظرة إجلال وإكبار واحترام، فهو القائد الهُمام الذي أوقف مَدَّ النصارى، ولقَّنهم درسًا لا يُنسى، وأعلى شأن العرب مرة أخرى، وإيثار الشاعر الفعل **(رأى)** وتكراره يؤكد أنَّ هذا الأمر لم يَسمع عنه المعتمد، بل رآه رأيَ العين مما يجزم بحدوثه.

وفي الأبيات مجموعة من الصور الحسية البصرية، والصورة البصرية أقوى المدركات الحسية، استعان بها الشاعر في رسم صورة حقيقية لشجاعة الأمير يوسفَ في أرض المعركة، وحُسن بلائه في منازلة الأعداء، فقد رآها المعتمد بعينه، ووثق تلك الرؤية بقوله: **(رَأَيْنَا)**، ثم يستعين باللون فيشبه السيوف عند احتدام الجيشين بالنجوم بجامع اللمعان والضياء، ويشبه الغبار المتناثر من سنابك الخيل والفرسان في أرض المعركة بالليل في ظلمته وستْره، وتلك صورة تقليدية موروثة متداولة في الشعر العربي، وتشبه إلى حد كبير قولَ بشار بن برد[3]: [الطويل]

---

(١) تناجز القومُ: تقاتلوا وتسافكوا الدماء.

(٢) البيان المغرب لابن عذاري ٣٧/٣.

(٣) ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق وشرح الشيخ: محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٧٦م، ج٣٣٥/١.

كـأنَّ مُثـارَ النَّقْـعِ فـوقَ رؤوسِـنا وأَسْـيَافَنا لَيْـلٌ تَهَـاوَى كَوَاكِبُـهْ

وهذا البيت هو الذي أكسب بشارًا شهرةً في النبوغ في الشعر؛ وذلك أنه جمع فيه تشبيه مركب بمركب **(تشبيه الهيئة الحاصلة من رؤية النقع المظلم فوق رؤوس الأعداء والسيوف في أثنائه تبرق وتعلو وتنخفض حين يشتد القتال بصورة الليل حين تَهْوِي كواكبه)**، فجمع تشبيهين في تشبيه، أما المعتمد فقد أفرد التشبيه حيث شبه السيوف في ساحة المعركة وقت الضحى بالنجوم بجامع اللمعان والتألق، وهذا أمر طبعي نتيجة سقوط أشعة الشمس عليها، فتشبيه بشار أقوى، والضد يُظهر حُسنَه الضدُّ، وبضدها تتميز الأشياء، لكنَّ جمع **(سيف)** على **(سيوف)** في بيت المعتمد يفوق في دلالته جمع بشار له على **(أسياف)**؛ لاستخدامه وزنًا من أوزان الكثرة، وشبه الغبار المتناثر من سنابك الخيل والفرسان في أرض المعركة بالليل في ظلمته، فقد استحال النهارُ بسببه ليلاً، ويتعجب الشاعر من شدة بأس يوسف وإقدامه وجرأته عند التناجز بالرماح.

ويُبشره المعتمد بأن فِعاله الحسنة في الذبِّ عن الإسلام ونصرة المسلمين سيلقاها يوم القيامة مضمخة بالمِسك، وسيُثني عليه الشهداء ببسالته في يوم العُرُوبة، يقول: [المتقارب]

سَـتَلْقَى فِعالَـكَ يـومَ الْحِسَـا بِ تُنْثَـرُ بالْمِسْـكِ مِنْـكَ انْتِثـارَا

وللشُّـهَداءِ ثَنَـاءٌ عَلَيْـكَ بِحُسْـنِ مُقامِـكَ ذاكَ النَّهَـارَا

وأنَّهُـمُ بـكَ يَسْتَبْشِـرُو نَ ألاّ تَخَـافَ وألاَّ تُضَـارَا

ونلحظ أن المعجم اللغوي للشاعر هنا يقوم على الألفاظ الدينية: **(يوم الحساب/الشهداء/ حسن المقام/ يشتبشرون)**، وفيه تأثرٌ بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ

يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١).

ويصف لسان الدين بنُ الخطيب الأمير يوسفَ بالتدين، والحكمة، وتكريم الفقهاء الأجلاء، وقد ورد في (البيان المغرب) ما يؤيد ذلك وأنه"كان يُفضل الفقهاءَ، ويُعظِّم العلماءَ، ويصرفُ الأمورَ إليهم، ويأخذ فيها برأيهم، ويَقضي على نفسه بفُتياهم" (٢)، يقول(٣): [الرجز]

وَخَلَعَ الْمُلُوكَ بالأنَدَلُسِ وكان ديَّانًا ونُوْرَ الْمَجْلِسِ

مُكَرِّمًا لِلْفُقَهَاءِ الْجِلَّهْ مُوَفِّيًا فِيْهِمْ حُقُوقَ الْمِلَّهْ

حتَّى إذا يوسفُ ولَّى وقَضَى قامَ عَلِيٌّ نجلُهُ النَّدْبُ الرِّضَا

وكان خيِّرًا حَمِيدَ السِّيرَهْ مُتَّصِفًا بالشّيَمِ الأَثِيْرَهْ

فالأبيات ترسم له صورة الشخصية المثالية للحاكم المتمسك بشرع الله، المنافح عن العقيدة الدينية، المدافع عن مصالح الأمة بما يرضي الله، المُبجِّل للعلماء.

ويمدح ابن قزمان الأمير يوسف بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، فهو يتوكل على الله في حركاته وسكناته ويلتزم شرائع الإسلام في كل أمور حياته، فيقول(٤):

ذَا هُو سلطانْ كما يُقالْ سلطانْ

(١) سورة آل عمران، الآيتان ١٦٩ و١٧٠.

(٢) البيان المُغرب ٣٨/٣.

(٣) رَقْم الحُلَلِ في نَظْمِ الدُّوَل، ص٥١.

(٤) ديوان ابن قزمان القرطبي إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، ص١٣٢.

أن يحكم بالسُّن[١]والقُرانْ

وذَكَا لَسْ نَفَّس[٢]عليه شيطان

يَنْتَلَفْ عنده الذَّكَا ويَحِير

ولذا يدعو له مُقرًّا بفضله، وجميل صنيعه، وطِيب الحياة تحت ظله، ويري أنَّ شكرَه إياه يَقْصُرُ عن التوفية بحقِّه، فيقول[٣]:

لمْ تكون الجزيرَ مسكونهْ

إلا بالله وسعدِ لمتونهْ

عش كثيرْ لا تعب ولا مُونهْ

هذا هو الصفا بلا تكديرْ

صنع الله للكل صنعا جميلْ

ولطيبِ الحَيَا وجَدْنا سبيل

فنحن في نعْمَهْ وظلاً ظليلْ

كلَّ شكرًا طويلْ عليهْ (هُو) قصيرْ

ويظهر في زجل ابن قزمان الإعجاب والإكبار للأمير يوسف، ولا غرو، فـ" المدح فن من فنون الشعر الغنائي يقوم على عاطفة الإعجاب، ويعبر عن شعورٍ – تجاه فرد من الأفراد أو جماعة أو هيئة – مَلَكَ على الشاعر إحساسه، وأثار في نفسه رُوح الإكبار والاحترام لمن جعله موضع مديحه"[٤]، فابن قزمان

---

(١) أراد: السنة المطهرة.

(٢) **لَسْ**: ليس، والتنفيس هنا بمعنى الإلهام.

(٣) ديوان ابن قزمان القرطبي إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، ص ١٣٥.

(٤) أروع ما قيل في المديح، إميل ناصيف، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص٩.

يُثني عليه مُقدِّرًا جهوده الحربية في استقرار الأمن في جزيرة الأندلس، وهذا راجع إلى سياسته الحكيمة الرشيدة في تسيير الأمور، يقول[١]:

إن أردت السياسةْ دونكُم كلَّ سياسْ
وإن امضيتَ مرادكْ لم يكنْ فيه عليكْ باسْ
شكر اللَّ اهتبالَكْ وجَزَا خيْر عن الناس

وهذا لأنَّ "حكمه الذي أسسه في المغرب والأندلس كان حكمًا راشدًا ورشيدًا، حيث بنى دولته على أسس وقيم الإسلام العليا كالشورى والعدل وإعلاء كلمة الله، حتى صار بالإمكان إدراج تجربته في مصافِّ تجارب الخلفاء الراشدين أنفسهم"[٢].

ونلحظ أن الشعراء في مضامينهم المدحية من خلال المعاني والأفكار السابقة في الأبيات يسعون إلى بيان أنَّ الأمير يُوسف بصفاته هذه يُعدُّ مثلا يُحتذى به، ورجلا أيَّ رجلٍ تتجسد في شخصه الفضائل والصفات الحميدة للقائد الإسلامي.

والخلاصة أنَّ مدائح الشعراء للأمير يوسف لم تخرج عن سمت المدائح الأندلسية بعامة فمعظمها موجَّه إلى أمراء الأندلس وملوكها، وهي من "حيث المضمون أو المحتوى لها جانبان: جانب يريك الصفات التي يخلعها الشعراء على ممدوحيهم، وهذه لا تخرج عادة عن الصفات التقليدية التي يطيب للعربي أن يوصف بها، كصفات المروءة والوفاء والكرم والشجاعة، وما أشبه، أما الجانب

(١) ديوان ابن قزمان القرطبي إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، ص١٥٤.

(٢) يوسف بن تاشفين التجربة التاريخية الرائدة ص٦٢.

الآخر فيدور حول انتصارات الممدوحين التي تُعد نصرًا للإسلام والمسلمين، ويدخل في ذلك أحيانًا وصف جيوشهم ومعاركهم الحربية"[١].

(١) الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٦م، ص١٨٥.

المبحث الثاني

صورة الأمير يوسف بن تاشفين في شعر الرثاء

الرثاء هو مدح الميت، ورَثَى الميتَ: إذا بكاهُ وعدَّدَ محاسنه، وكذلك إذا نظم فيه شعرا[١]، ومعنى هذا أن الرثاء يكون شعرًا، كما يكون نثرًا، إلا أننا نطلق لفظ الرثاء على الشعر خاصة، وللرثاء جانبان، **أولهما:** التعبير عن مشاعر الحزن، **وثانيهما:** ذكر ما كان يتمتع به الميت من محاسن وأمجاد.

والرثاء من أصدق الأغراض الشعرية وأكثرها تعبيرًا عن العاطفة، وأقواها تأثيرًا في نفوس السامعين؛ لأنَّ "الشِّعر في المراثي إنما يُقال على الوفاء، فيقضي الشاعرُ بقوله حقوقًا سلفت، أو على السجِيّة إذا كان الشاعر قد فُجع ببعض أهله، أما أن يُقال على الرغبة فلا؛ لأن العرب التزموا في ذلك مذهبًا واحدًا، وهو ذكر ما يدل على أن الميت قد مات؛ فيجمعون بين التفجع والحسرة والأسف والتلهف والاستعظام، ثم يذكرون صفات المدح مبللة بالدموع"[٢]ويُعد الرثاءُ أجودَ الشعر وأصدقه، وهذا ما حملته إجابة الأعرابي حين سئل: ما بالُ المراثي أجوَد أشعاركم؟ قال: **"لأنَّا نقول وأكبادُنا تحترق"**[٣].

---

(١) لسان العرب (رثا).

(٢) تاريخ الأدب العربي، مصطفى صادق الرافعي، ط١، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٢١هـ/٢٠٠٠، ج٣/٨١.

(٣) البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٧، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٢/٣٢٠.

ومن خلال بحثي عن نتاج الشعراء في رثاء يوسف بن تاشفين لم أعثر إلا على قصيدة واحدة لمحمد بن سِوار الأُشبوني[١]، ومع ذلك رأيت أن أفردها بمبحث مستقل لاختلاف الغرضين، وإن تفاوت كم المادة العلمية بين المبحثين.

وقد استوقفني هذا الأمر، فكيف بأمير حكم بلاد المغرب ثم بلاد الأندلس مدةً طويلة قاربت خمسين عامًا، ولا أجد غير قصيدة واحدة في رثائه في الشعر العمودي، وأيضًا لم أجد أثرًا لرثائه في الزجل أو الموشح ؟

ويمكن أن نعزو سبب ندرة الشعر في رثاءالأمير يوسف خاصة مقارنةً بالمدح إلى أنه "خلافًا لما كان عليه الوضع على عهد الطوائف، لم يتخذ المرابطون لأنفسهم شعراء رسميين ولم يجعلوا للشعر مجلسًا خاصًا، وكانوا مع ذلك يُجزلون العطاء لِمَن يمدحهم دون أن يَسْعَوا إلى ذلك"[٢]، أو ربما نجد جوابًا لذلك فيما ورد في رسالة الشقندي في قوله عن يوسف " لولا توسُّط ابن عبَّاد لشعراء الأندلس في مدحه ما أجروا له ذكرًا، ولا رفعوا لملكه قدرًا "[٣]، ويمكن

(١) هو الوزير الكاتب أبو بكر محمد بن سِوار الأُشبوني، ولد في أُشبونة غرب الأندلس ونشأ بها، أسره النصارى وفداهم منه القاضي علي بن القاسم بنُ عشرة قاضي سَلا في المغرب، وله فيه مدائح كثيرة، وكان القاضي علي من المقربين ليوسف بن تاشفين، وأغلب الظن أنه وصل ابنُ سوار به. انظر في محمد بن سوار وترجمته وشعره: الذخيرة ق٢ ج٢/٨١١-٨٣٣، وتاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس لشوقي ضيف ٣٣٥-٣٣٦، والمغرب ٤١١/١.

(٢) من مقال: الاتجاهات الأدبية في العصر المرابطي، د. الحسين أيت مبارك، كلية اللغة العربية مراكش المغرب، بتاريخ السبت ٢٣ يوليو ٢٠١٦م على صفحته: (صفحات تربوية في الأدب والنقد للأستاذ الحسين أيت مبارك).

(٣) نفح الطيب ١٩١/٣.

ردها إلى ضياع مرثياته، وأنه لم يصل منها شيءغير هذه المرثية التي قيلت على قبره، وسأقف عندها بالدرس والتحليل لبيان صورة الأمير يوسف فيها.

يقول محمد بن سِوار في تأبين أمير المسلمين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين رحمه الله، وأنشدها على قبره(١): [الكامل]

مَلِكُ المُلُوكِ وما تركْتَ لعامِلٍ عَمَلاً من التقْوَى يُشارِكُ فيهِ

يا يوسفٌ ما أنتَ إلا يوسفٌ والْكُلُّ يعقوبٌ بما يَطْوِيهِ

اسمَعْ أميرَ المسلمينَ وناصِرَ الدْ دِينِ الَّذِي بنفُوسِنا نَفدِيهِ

جُوزِيتَ خَيْرًا عن رعِيَّتِكَ الَّتِي لم تَرْضَ فيها غيرَ ما يُرْضِيهِ

أمَّا مَسَاعِيْكَ الكِرَامُ فإنَّها خَرجَتْ عن التحدِيدِ والتَّشْبِيهِ

في كُلِّ عامٍ غزوةٌ مَبْرُورةٌ تُرْدِي عدِيدَ الرُّومِ أو تُفْنِيهِ

تَصِلُ الجِهادَ إلى الجِهَاد مُوَفَّقًا حَتَمَ القَضَاءُ بكلِّ ما تَقْضِيهِ

مُتَوَاضِعًا لله مُظْهِرَ دِينِهِ في كُلِّ ما تُخْفِيهِ أو تُبْدِيهِ

يُعددُّ الشاعرُ مآثر المرثي ومحاسنه، فهو ملك الملوك، لأنَّه فاقهم وحاز قصب السبق في كل فضيلة، ودليله أنه لم يترك لأيٍّ منهم **(عملا من التقوى يُشارك فيه)**، ثم يُبيِّن مدى حسرته وتفجعه على فراقه ومدى الحزن الذي تركه في قلوب محبيه مستعينًا بصورة من التراث الديني في قصة نبي الله يوسف – عليه السلام– وشدة حزن أبيه نبي الله يعقوب (عليه السلام) الذي أوشك أن يُودي بحياته، وهذا المُعْطَى التراثي الذي ارتبط في وجداننا بقيم روحية وفكرية ووجدانية معينة، مجرد استدعائه يكون كافيا لإثارة كل الإيحاءات والدلالات التي

(١) الأبيات في الذخيرة ق٢ج٢/٨٣١-٨٣٢، والبيان المغرب ٣/٣٨-٣٩.

ارتبطت به في وجداننا تلقائيًا[١]، ويستحضر في أذهاننا قول الله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]، وهذا هو الجانب **الأول** للرثاء وهو التعبير عن مشاعر الحزن، **والآخر** يكون بذكر محاسن الميت وأمجاده، فالشاعرُ يخاطب المرثيِّ كأنه على قيد الحياة بقوله: **(اسمع)**، ثم يدعو له أن يجزيه الله خيرًا جزاءَ ما قدَّمَ في خدمة رعيته التي بذل من أجلها كلَّ ما يُرضي الله؛ لأنه كان يوقن أن الحاكم مسؤول أمام الله والناس وأمام نفسه، فينبغي عليه أن يهتم بدقائق الأمور وصغائرها حتى لا يقع ظلم أو تقصير، تنفيذًا لقول الرسول الكريم: **"كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّتِه: الإمامُ راع، ومسؤولٌ عن رعيَته"**[٣]، وقد قضى حياته مستميتًا في الدفاع عن الإسلام والمسلمين في جهاده للأسبان وغزواته المتتالية التي كانت سببًا في هوانهم وهلاك كثير منهم، وأنَّ الله كان معه وناصره ومؤيده؛ لأن شيمته التواضع لا الشهرة والتباهي، وغرضه إعزاز دين الله، ونصرته.

(١) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، د.علي عشري زايد، ص١٦.

(٢) سورة يوسف، الآيات من٨٤-٨٦.

(٣) صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، حديث رقم (٨٩٣)، ص٢١٧.

وينياديه الشاعر بـ**(أمير المسلمين، وناصر الدين)**، ويقول ابن عذاري في سبب تسميته **(أمير المسلمين)** سنة ٤٦٦هـ: "اجتمع أشياخ القبائل على الأمير أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، وقالوا له: أنت خليفةُ الله في المغرب، وحقُّك أكبرُ من أن تُدْعَى بالأمير إلا بأمير المؤمنين، فقال لهم: حاشا لله أن أتَسَمَّى بهذا الاسم، إنَّما يتَسمَّى به الخلفاءُ، وأنا رجل الخليفة العباسي، والقائم بدعوته في بلاد الغرب، فقالوا له: لا بُدَّ من اسم تمتاز به، فقال لهم: يكونُ أميرَ المسلمين، فقيل: إنَّه هو الذي اختاره لنفسه، فأمر الكُتَّابَ أن يكتبوا بهذا الاسم إذا كتبوا عنه أو إليه"[١]، ولهذا تداوله كُتَّابه في رسائلهم، واستخدمه كلُّ مَنْ خاطبه استجابةً لمرسومه، وإيمانًا منهم بتقواه وصلاحه، وهذا يدل على تواضعه حيث "ارتضى أن يكون تابعًا للخلافة العباسية في العراق، بعد أن رفض إلحاح الأعيان والعلماء أن يكون خليفةً وأميرًا للمؤمنين، بالرغم من قوته وعزته، وما كانت تمر به الدولة العباسية آنذاك من ضعفٍ وهوان، فرحب العباسيون بالأمر باعتباره فخرًا لهم"[٢]، أما لقب (ناصر الدين) فقد كان ابن تاشفين ناصرا حقيقة للدين، فوافق اللقبُ أهلَه.

ويُعظِّم الشاعر مساعى المرثي بأنها لا يدركها حد، ولا يمكن إحصاؤها لكثرتها، كما أنها لا تُشبه أفعال الآخرين، فلا نظير لها ولا مثيل، فقد ارتفع عن غيره بأفعاله الكريمة وخصاله الحميدة، والكلُّ دونه، ولذا حُقَّ البكاء عليه؛ فقد فقدوا إنسانا يمتلك ميزات حسنة وأخلاقًا عالية، وفي البيت مبالغة ظاهرة في قوله: **(خرجت عن التحديد والتشبيه)**.

(١) البيان المغرب لابن عذاري ٢٢/٣، والحلل الموشية ص٢٩.

(٢) يوسف بن تاشفين التجربة التاريخية الرائدة، ص٣٧.

ويقول محمد بن سِوار فيه[١]: [الكامل]

ولقد مَلَكْتَ بحَقِّكَ الدُّنْيَا وكَمْ مَلَكَ المُلُوكُ الأمرَ بالتَّمْوِيهِ!
لَوْ رامَتِ الأيامُ أن تُحْصِي الَّذِي فَعَلَتْ سُيوفُكَ لم تكُنْ تُحْصِيهِ
إنَّا لَمَفْجُوعُون مِنْكَ بواحِدٍ جُمِعَتْ خِصالُ الخَلْقِ أجمعَ فيهِ
وإذا سَمِعتْ حَمَامةً في أيْكَةٍ تَبْكِي الهَدِيْلَ فإنَّمَا تَرْثِيهِ
ومَضَى قَدِ اسْتَرْعَى رَعِيَّتَهُ ابنَهُ فأقامَ فِيْهِمْ حَقَّ مُسْتَرْعِيهِ
وإذا هِزَبْرُ الْغَابِ ضَرَّى شِبْلَهُ في الْغَابِ كانَ الشِّبْلُ مِثْلَ أبِيهِ
وإذا عَلِيٌّ كانَ وارثَ مُلْكِهِ فالسَّهْمُ مُلْقًى فِي يَدِ بارِيهِ[٢]

وقد كان يوسف بنصرته للإسلام ملكًا حقًّا لا صورة مموهة، والبيت يحمل دلالات رائعة؛ فيوسف ملك بحقٍّ، وصل إلى سُدَّة الحكم ببطولاته وفتوحاته وانتصاراته لا بالوراثة ولا بالتمويه، وكأني بالشاعر يشير إلى ملوك الطوائف الذين داهنوا الأعداءَ من الروم، ورضُوا بدفع الجزية لهم مقابل البقاء في مناصبهم، بل إن بعضهم استعان بالعدو على أخيه المسلم طمعًا في الحكم، والمقابلةُ بين المعنيين في شطر البيت موفقة، أعني: **(المُلْك بالحق)**، و**(المُلْك بالتمويه)**، ناهيك عن لفظة: **(التمويه)** وما تحمله من معاني التلبيس والخداع والزور، وتزيين الباطل ليُرَى في صورة الحق، ومَوَّهَ الحقيقةَ: ألبسها الباطلَ

(١) الذخيرة ٨٣٢/٢.

(٢) يقصد علي بن يوسف بن تاشفين، وكان رجلا حليمًا وقورًا، صالحا عدْلاً، منقادًا للحق والعلماء، حسن السيرة، جيِّدَ الطويَّة، نزيهَ النفس، جرى على سَنن أبيه في إيثار الجهاد، وإخافة العدو، وحماية البلاد. ينظر: وفيات الأعيان ١٢٣/٧، والمعجب ص١٣٠.

وأفسدها[١]؛ ولذا تَعجِز الأيامُ عن إحصاء ما فعلَتْه سيوفُ الأمير يوسف في الأعداء، ومثلُ هذا يُتَفَجَّعُ عليه، ويُفجعُ المرءُ في موته؛ لأنه جمع الخصال الحسنة لكل الخَلْق، فقد فقدوا رجلا عظيما حلَّتْ بهم خسارةٌ كبرى نتيجة لفقدانه، ويتجلى في المرثية صدقُ العاطفة "وسبيل الرثاء أن يكون ظاهرَ التفجع بَيِّنَ الحسرة"[٢].

ولذا لا يقتصر الأسى على فراقه ورثائه على الإنس، بل يطول الطيور أيضًا، وقد يكون الشاعر أفاد من الأسطورة التي تزعم أن الهديل فَرْخٌ كان على عهد نوح –عليه السلام– فمات ضَيْعة وعطشًا، فليس هناك من حمامة إلا وهي تبكي عليه؛ وذاك دلالة على الحزن والحنين الدائم[٣]، وتمتاز الأبيات بقوة العاطفة وصدق الشعور.

ولشدة اهتمامه بأمر رعيته لم يتركهم نهبًا للخلاف والصراع على الحكم بعد وفاته، بل ترك فيهم خليفته ابنه عليًّا الذي اختاره لهذه المهمة "ليس عن هوًى في نفسه أو استبدادٍ في الرأي، وإنما كان الأمر بعد أن استخار اللهَ وشاور الفقهاء والعلماء وأهلَ الحكمة والخبرة والتجربة في دولته، فأشاروا عليه بذلك، فعَلِيٌّ قد نشأ في حِجر أبيه، وأخذ عنه الصفات الحميدة، مثل التقوى والحلم وغيرهما؛ ولذا فهو يستأهل المنصب الذي أُنيط به"[٤]، وهذا يوضح لنا منهج

---

(١) لسان العرب (موه).

(٢) العمدة، لابن رشيق، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجيل بيروت، ١٩٧٢م، ١٤٧/٢.

(٣) لسان العرب (هدل).

(٤) صورة الأمير يوسف بن تاشفين في أدب الرسائل، رائد عبد الرحيم، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، المجلد ١/٢١، ٢٠٠٧م، ص٥٢، وينظر: نص رسالة العهد لابنه بالولاية صبح الأعشى، للشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي، المطبعة الأميرية =

الأمير يوسف القائم على الشورى في الحكم وإدارة البلاد، وهو منهج قرآني نبوي، قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾(١)، وقال عز وجل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾(٢).

ويرسم الشاعر صورة لكفاءة علي التي ورثها عن أبيه في الحكم والسياسة، والشجاعة في ميدان الحرب من خلال الصورة الاستعارية (هزبر الغاب)، والكنائية (ضرَّى شبله)، والتشبيهية (الشبل مثل أبيه) في قوله:

وإذا هِزَبْرُ الْغَابِ ضَرَّى شِبْلَهُ في الْغَابِ كانَ الشِّبْلُ مِثْلَ أبِيهِ

وقد ساعد التضعيف في الفعل (ضرَّى) على بيان كثرة التدريب والتعليم والتحفيز من قِبل الأب لابنه لتهيئته للقيام بمهامه من بعده، وتكرار لفظة (الغاب) يوحي بالقوة والشجاعة، فلا يثبت في الغاب إلا الأقوياء.

وحاصل القول أنَّ صورة الأمير يوسف في الرثاء تدور حول كونه ملكَ الملوك، والملك الأهل لمنصبه، وهو أمير المسلمين وناصر الدين، والقائد المجاهد المتواضع، وهو رجل بأُمَّة، جُمعت خصال الخلْق أجمعين فيه؛ ولذا فالحزن على فقدانه يشبه حزن سيدنا يعقوب على فقد ولده يوسف (عليهما السلام).

=

بالقاهرة ١٣٣٤هـ/١٩١٦م، ١٠/١٦٠- ١٦٢.

(١) سورة آل عمران من الآية ١٥٩.

(٢) سورة الشورى من الآية رقم ٣٨.

الخاتمة ونتائج البحث

بعد هذه الرحلة الممتعة مع شعر الشعراء حول الأمير يوسف بن تاشفين نستطيع أن نخرج بهذه النتائج:

أولا- رسم الشعراء للأمير يوسف بن تاشَفين صورًا مشرقة في المدح تمثلت في:

- صورة الملك المؤيد وجُنده من الله – عزَّ وجلَّ- بالنصر على الأعداء، وهذا لأنَّه مخلص النية في الجهاد، فإنَّ لله جنودًا أعزَّ بهم كلمة الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم).
- صورة الملك العادل الذي يقوم بحق رعيته خير قيام، ولا يعرضهم لسوء أبدا؛ لأنَّه يعلم أنه مسؤول عنهم أمام الله – عز وجل – ومحاسب عليهم، فهو شبيه سيدنا عمر الفاروق (رضي الله عنه) في عدله ووَرَعه، وعلى خُطاه يسير، وهذا لأن أساس دولتهم قائم على دعوة دينية إصلاحية.
- صورة المُنْقِذ والمُخلِّص لضعفاء المسلمين من الذل والهوان، فهو سريع إلى نجدة المظلوم وإجابة المستغيث.
- صورة القائد الشجاع المِقْدَام في ساحات الوغى الذي يَهُبُّ لنصرة الدين، مع حكمة وسداد رأي، فهو الرجل الخبير الذي صقلته التجارب والأحداث، وقد وقف الشعراء عند هذه الصورة كثيرا، وأخذت حَيِّزًا كبيرًا من أشعارهم؛ لأنه كان في جهاد متواصل وفتوحات مستمرة، لا سيَّما في حديثهم عن موقعة الزلاقة المشهورة.
- صورة يوسف الظافر بالنصر تقابلها صورة أذفونش وجيشه المنهزم، والحق أن هاتين الصورتين قد شغلتا بال الشعراء كثيرا، بل إنَّ جُلَّ ما قيل في الأمير يوسف بن تاشفين من شعر إنما دار حول جهاده في موقعة الزلاقة.
- صورة يوسف التقي الورع، فتقوى يوسف وخوفه من ربه كان باعثا له على سرعة الاستجابة لنصرة الدين وإخوانه المسلمين وإعلاء كلمة الحق، ولم

يستطع الشعراءُ إغفالَه، ولولاه لعادت الجزيرة تحت حكم الروم، وأيضًا لم يكن غرضه المُلك والمال، ودليل ذلك أن جنود المسلمين أقامت في موقع المعركة أربعة أيام لتجمع الغنائم، فلما حصلت عَفَّ عنها يوسف وآثر بها ملوك الأندلس، وعرَّفَهم أن مقصوده إنما كان الغزو لا النهب.

– التركيز على الأصل العربي، فهو طَيِّب النسب، كريم المَحْتِدِ، عريق الأصل، يمني حِمْيَرِيّ.

ثانيًا– رسم الشعراء للأمير يوسف بن تاشَفين في الرثاء صورًا طيبةً حميدةً تدور حول وصفه بالتقوى، والقيام بحق رعيته على أكمل وجهٍ، والتواضع، والجهاد وإعلاء كلمة الله.

ثالثًا– يعد يوسف بن تاشفين بحق واحدًا من عظماء المسلمين الذين جدَّدُوا للأمة أمر دينها ولم يأخذ حقه من الدراسات الأدبية.

رابعًا– لم يقتصر نتاج الشعراء في الحديث عن الأمير يوسف بن تاشفين على الشعر العمودي بأوزانه الخليلية المعروفة، بل تجاوزه إلى الموشح والزجل، وهما من الفنون الشعرية التي استحدثها الأندلسيون؛ رغبة منهم في التجديد وملاءمة حياتهم الاجتماعية والثقافية في ذلك العصر.

خامسًا– خلع الشعراءُ على الأمير ألقابًا عدَّة تدل على مكانته الدينية ومنزلته السامية في نفوسهم، فهو ناصر الدين، وأمير المسلمين، وظل الله، وهو مثل الفاروق عمر، ومؤيد الدين، وعِظْلِمُ الصحراء، ويوسف التَّقِي، وملك الملوك، وصاحب العُدْوة، وصاحب الأندلس.

سادسًا– يُعدُّ الشعرُ وثيقةً تاريخيةً، وها هو ذا كما نرى في هذا البحث قد وثَّق انتصارات الأمير يوسف بن تاشفين، والاستنجاد به من قبل مسلمي الأندلس، وتلبيته لندائهم، كما وثَّق بلاءه في المعارك الحربية ضد النصارى وشجاعته وقوة بأسه.

سابعًا– كان الشعر في الأمير يوسف تعبيرًا صادقا عن أحاسيس الشعراء تُجاهه سواء في المدح أو الرثاء، والصور التي رسمها الشعراء له كانت صادقة موافقة له في الحقيقة لا يشوبها كذب أو مغالاة، وقد أيدتْ كتب الأدب والسير والتاريخ والتراجم هذا الأمر.

ثامنًا– أن الشعراء في المدح والرثاء ركزوا على جانبه الجهادي، فوصفوا معاركه الطاحنة مع النصارى المُتوَّجة بانتصاراته؛ ولذا فشا في شعرهم ألفاظ الحرب، وصور احتدام الفريقين، وما يترتب عليها من مشاهد الحرب المختلفة، ووصف أدوات الحرب.

تاسعًا– اعتمد الشعراء في تشكيل الصورة على الصورة البيانية من تشبيه واستعارة وكناية، والصورة الحسية البصرية، واللونية، والحركية، كما استعان الشعراء بكل ما من شأنه أن ينقل إلينا التجربة الشعرية كالتكرار والمجاز والتشخيص والطباق والمقابلة والجناس والإيحاء والرمز وغيره.

عاشرًا– تعددت مصادر الصورة عند الشعراء، **فمنهم من استقاها من التراث الديني والتاريخي** باستدعاء شخصيات وأحداث تركت بصمات واضحة في مجرى التاريخ للإشارة إلى أمر ما، مثل: ذكر سيدنا عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– للدلالة على العدل والورع، وذكر سيدنا يوسف وأخوه بنيامين –عليهما السلام– للإشارة إلى قوة الأخوة، وذكر سيدنا يعقوب –عليه السلام – للإشارة إلى شدة حزنه على فقد ولده يوسف –عليه السلام–، واستدعاء غزوة بدر (يوم القليب) للبشارة بالنصر، وللدلالة على أن معارك الممدوح امتداد لمعارك الإسلام الكبرى، وغيرها، **ومنهم من** استحضر معاني السابقين وصورهم، **ومنهم من استمدها من** الطبيعة فصوروا بالعقاب، والفُتخ، والأسد، والخيل، والحمام، والليل، والصبح، والبدر، وغيرها

حادي عشر– ظهر تأثر الشعراء بالقرآن الكريم فاقتبسوا كلماته، واستوحوا قصصه، وبالحديث الشريف، وبالمثل.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

١- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، د.عبد القادر القط، نشر مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٨م.

٢- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، تأليف: د. علي عشري زايد، دار الفكر العربي، القاهرة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٣- الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٦م.

٤- أروع ما قيل في المديح، تأليف: إميل ناصيف، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

٥- أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، ط١٠، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م.

٦- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،٢٠٠٢م.

٧- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، لأبي الحسن علي بن أبي زرع الفاسي (٧٤١هـ)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.

٨- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للإمام السيوطي (ت:٩١١هـ)، ط٢، نشر دار الفكر، بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٩- بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق ، د. كامل حسن البصير، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م،

١٠- البيان المُغْرِب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري (ت:٧١٢هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، ومحمود بشار عواد، ط١، دار الغرب الإسلامي، تونس ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

١١- البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت:٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٧، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
١٢- تاريخ ابن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون (ت:٨٠٨هـ)، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: د. سهيل زكار، ط١، دار الفكر، بيروت، لبنان،١٤٣١هـ/٢٠٠١م.
١٣- تاريخ الأدب الأندلسي، تأليف: د. محمد زكريا عناني، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٩م.
١٤- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، تأليف: إحسان عباس، ط٢، دار الشروق، عمان، الأردن ١٩٩٧م.
١٥- تاريخ الأدب العربي، تأليف: مصطفى صادق الرافعي، منشورات محمد علي بيضون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٢١هـ/٢٠٠٠.
١٦- تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، تأليف: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩م.
١٧- تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
١٨- الجامع لشعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي(٤٥٨هـ)، تحقيق: مختار أحمد الندوي، ط١، مكتبة الرشد بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
١٩- جذوة الاقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام بمدينة فاس، أحمد ابن القاضي المكناسي(١٠٢٥هـ)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م.

٢٠- جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (ت:٣٩٥هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، ط٢، دار الجيل بيروت، ودار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٨م.
٢١- جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف مصر ١٩٦٢م.
٢٢- جيش التوشيح، للسان الدين بن الخطيب (ت:٧٧٦هـ)، تحقيق: هلال ناجي، مطبعة المنار، تونس، (د.ت).
٢٣- الحلة السِّيَرَاء لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبَّار (ت:٦٥٨هـ)، تحقيق: د. حسين مؤنس، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م .
٢٤- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف مجهول، تحقيق: سهيل زكار، وعبد القادر زمامة، ط١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٢٥- الحيوان ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون ، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٥م.
٢٦- خريدة القصر وجريدة العصر، للعماد الأصفهاني الكاتب، قسم شعراء المغرب، تحقيق: محمد المرزوقي، محمد العروسي المطوى، والجيلاني بن الحاج يحيى، ط٣، الدار التونيسة للنشر ١٩٨٦م.
٢٧- خريدة القصر وجريدة العصر، للعماد الأصفهاني الكاتب، قسم شعراء المغرب والأندلس، تحقيق: آذرتاش آذرنوش، نقحه وزاد عليه: محمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوى، والجيلاني بن الحاج يحيى، ط٢، الدار التونيسة للنشر ١٩٨٦م.

٢٨- خزانة الأدب وغاية الأرب، لتقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجَّة الحموي، شرح: عصام شعيتو، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان ٢٠٠٤م .

٢٩- دار الطراز في عمل الموشحات، لأبي القاسم هبة الله بن جعفر ابن سناء الملك (ت:٦٠٨هـ)، تحقيق: د. جودت الركابي، ط١، دار الفكر، دمشق ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

٣٠- دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، تأليف: د. سعدون عباس نصر الله، ط١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٥م.

٣١- ديوان ابن رشيق القيرواني، جمعه ورتبه: د. عبد الرحمن باغي، نشر وتوريع دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٣٢- ديوان ابن قزمان القرطبي إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، تحقيق وتصدير: فيديريكو كورينتي، تقديم: د. محمود علي مكي، المجلس الأعلى للثقافة، المكتبة العربية، جمهورية مصر العربية، القاهرة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٣٣- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، ط٤، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف، القاهرة ١٩٥١م.

٣٤- ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق: د.عبد الوهاب عزام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، جامعة القاهرة.

٣٥- ديوان الأرَّجانيّ، لناصح الدين أحمد بن محمد الأرَّجاني، شرح: قدري مايو، ط١، دار الجيل، بيروت، لبنان ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٣٦- ديوان الأعمى التُّطِيلي، جمع وشرح وتحقيق: د. محيي الدين ديب، ط١، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان ٢٠١٤م.

٣٧- ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق وشرح الشيخ: محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٧٦م.

٣٨- ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، جمعه وحققه: أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، مراجعة: د. طه حسين، وزارة المعارف العمومية، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥١م.
٣٩- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لأبي الحسن عليّ بن بسَّام الشنتريني (ت:٥٤٢هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٤٠- ذيل تاريخ بغداد، لهبة الله أبي عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي(ت٦٤٣هـ)، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤١- رَقْم الحُلَل في نَظْمِ الدُّول، لأبي عبد الله لسان الدين بن الخطيب القرطبي (ت:٧٧٦هـ)، المطبعة العمومية، تونس ١٢١٦هـ .
٤٢- الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد عبد المنعم الحميري، تحقيق: د. إحسان عباس، ط٢، مطبعة لبنان، بيروت ١٩٨٤م .
٤٣- السيرة النبوية لأبي محمد عبدالملك بن هشام (ت:٢١٨هـ)، تعليق د. عمر عبد السلام تدمري، ط٣، نشر دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
٤٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد شهاب الدين أبي الفَلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الدمشقي (ت:١٠٨٩هـ)، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
٤٥- شروح سِقط الزَّنْد، للتبريزي والبطليوسي والخوارزمي، تحقيق الأساتذة: مصطفى السقا، عبد الرحيم محمود، عبد السلام هارون، إبراهيم الإبياري، حامد عبد المجيد، إشراف: د. طه حسين، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٤٦- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين إسماعيل، ط٣، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م.
٤٧- صبح الأعشى، للشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٣٣٤هـ/١٩١٦م.
٤٨- صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت:٢٥٦هـ)، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
٤٩-الصورة الأدبية تاريخ ونقد، د.علي علي صبح، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ١٩٩١م.
٥٠- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، د.علي البطل، ط٢، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٥١- العمدة، لابن رشيق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجيل بيروت، ١٩٧٢م.
٥٢- فن المديح وتطوره في الشعر العربي، تأليف: أحمد أبو حاقة، ط١، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت ١٩٦٢م.
٥٣- في تاريخ الأدب الجاهلي، تأليف: د. علي الجندي، ط١، مكتبة دارالتراث ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٥٤- قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية (عصر ملوك الطوائف)، لأشرف محمود نجا، ط١، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠٠٣م.
٥٥- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧م.
٥٦- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، لأبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي الشهير بابن خاقان (ت:٥٢١هـ)، تحقيق وتعليق د. حسين

يوسف خريُوش، ط١، مكتبة المنار الأردن بالتعاون مع جامعة اليرموك ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٥٧- الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن محمد بن الأثير(ت:٦٣٠هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٥٨- الكُليَّات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكَفوي (١٠٩٤م)، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.

٥٩ – لسان العرب لابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، طبعة دار المعارف، القاهرة د: ت.

٦٠- مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني(ت:٥١٨هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

٦١- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس لأبي نصر الفتح بن خاقان، دراسة وتحقيق: محمد علي شوابكة، ط١، دار عمار، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٣م.

٦٢- المُعْجِب في تلخيص أخبار المغرب، لأبي محمد عبدالواحد بن علي المراكشي، شرح وعناية: د. صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، ط١، صيدا، بيروت ٢٠٠٦م.

٦٣- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ١٣٩٩/١٩٧٩م.

٦٤- المُغرب في حُلى المَغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، ط٤، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤م.

٦٥- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تَغْرِي بَرْدي الأتابكي (ت:٨٤٧هـ)، تقديم وتعليق: محمد جمال شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٦٦- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للشيخ أحمد بن محمد المقّري التلِمسَاني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٦٧- نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.

٦٨- نقد النثر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي، تحقيق د. طه حسين، وعبد الحميد العبادي، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٩٤١م.

٦٩- الوافي بالوفيات، تأليف: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٧٦٤هـ)، عناية: ماهر جرَّار، وتحقيق د. رمضان عبد التواب، النسخة الألمانية، دار النشر للكتاب العربي، برلين، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٧٠- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت:٦٨١هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت ١٩٩٤م.

٧١- يوسف بن تاشفين التجربة التاريخية الرائدة، عمر أعراب، ٢٠١٩م، قناة متميزون للكتب النصية.

ثانيًا- الرسائل الجامعية:

عبد الجليل بن وهبون الشاعر وشعره، لسعيد أحمد محمد الغامدي، (رسالة ماجستير)، كلية اللغة العربية، جامعة أم القري، المملكة العربية السعودية ١٤١٩/١٤٢٠هـ.

ثالثًا- المجلات العلمية:

صورة الأمير يوسف بن تاشفين في أدب الرسائل في عهدَيْ الطوائف والمرابطين، لرائد عبد الرحيم، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، المجلد ٢١(١) ٢٠٠٧م.

رابعًا– المواقع الالكترونية:

مقال بعنوان(الاتجاهات الأدبية في العصر المرابطي)، د.الحسين أيت مبارك، كلية اللغة العربية مراكش، المغرب، بتاريخ السبت ٢٣ يوليو ٢٠١٦م على صفحته: (صفحات تربوية في الأدب والنقد للأستاذ الحسين أيت مبارك).